بهيجة حسين

رائحة اللحظات

رواية

ألف ياء
Alf Yaa

رائحة اللحظات

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: بهيجة حسين
الكتاب: رائحة اللحظات (رواية**)**
صدرت النسخة الرقمية: آذار/مارس 2026
ـ الإصدار الأول للكتاب 1992ـ دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ مصر

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePubوMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**«ألف ياء AlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بهيجة حسين

رائحة اللحظات

رواية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

إهداء

إلى أخوتي

ليس عندي ما أقدمه لكم سوى حبي وعمري وروايتي

بهيجة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ماذا حدث؟ كيف حدث؟ كيف أخذت القرار؟

الرحيل... الرحيل... الغربة. جواز السفر، بطاقة الطائرة، حقائب أجمع فيها أشيائي، وأمنيات بالتوفيق، ودموع محبوسة، وابتسامات دامعة، وكلمات تشجيع، ومطار ومطارات، وصوت فتاة ملّ تكرار الإعلان عن إقلاع طائرة أو وصول أخرى. صوت لزج لزوجة الأفاعي. تمتد أفاعي الصوت وتلتف حولي.

أريد أن أتراجع، أن أمزق جواز السفر وبطاقة الطائرة وأفرغ حقائبي وأضع محتوياتها في دولابي الصغير. أريد أن أقول للفتاة: لا تعلني عن موعد إقلاع الطائرة المتجهة إلى تونس.

ترددت داخلي مبرراتي للسفر، تردد صوت المنطق والعقل، فانشطرت نصفين.

«اقترب موعد الطائرة هيا بنا». كالذبيحة سرت بينهم تائهة. نسيت كل ما تعلمته وما خبرته. كمن ظل طوال حياته يجري كان لهاثي، قلبي وقع في قبضة يد حديدية شريرة ظلت تضغط عليه، لا تريد أن تخنقه ولا تريد أن تخفف من قبضتها. إحساس بالخوف يشل خطواتي، وكأني أسير إلى حبل المشنقة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خرساء حملتني السيارة من بيتي إلى المطار الملعون. قطعت المسافة في قرن. داست على أجزائي. صرخت. قبل أن تخرج صرختي من بين شفتي ارتدت إلى قلبي تسحقه وتسحقني. تشبثت بالأرض.

«لن أترك مصر»...

- ما زالت أمامك إجراءات السفر، إلى اللقاء.

سور حديد خلفه سجلت غربتي وانتظرت إقلاع الطائرة.

صعدت سلم الطائرة. وقع أقدامي فوق درجاته، وجسدي الصغير يحتل الفضاء، فرح خائف يزحف بدهشة من تحت أقدامي، يعلن خوض التجربة.

وصلت مطار تونس في الواحدة بعد منتصف الليل بتوقيت القاهرة.

- مرحبا بك.

- ماذا؟

كرر ضابط الجوازات ترحيبه، وابتسامة ودودة تملأ وجهه.

وقفت بجوار حقائبي لا أعرف ماذا أفعل.

اقترب مني شاب تونسي كان يشاركني هو وزوجته الفرنسية مقعد الطائرة وسألني عن وجهتي.

- لا أعرف، معي عنوان صديقة تونسية يمكن أن أذهب إليها ويمكن أن أبيت الليلة في فندق.

- الأفضل أن نذهب إلى صديقتك.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ركبنا تاكسياً قطع طريقنا مظلماً تناثرت على جانبيه أعمدة الإنارة التي لم يمكنني ضوئها الخافت من تحديد معالم الطريق.

- قضينا أسبوعاً في مصر... بلدكم جميل... ولكن لا شيء فيه بلا ثمن.

متحفزة ومستفزة رددت عليه:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الأسعار مرتفعة، وفي كل مكان تجدين من يأخذ منك جنيهاتك في الشوارع وفي المساجد والمتاحف.

- معذرة.

- لست المسئولة على أي حال. هل أتيت زيارة إلى تونس؟

- إنها محطة انتقال إلى الجزائر للعمل بها.

رغم تبادل الحديث بيني وبين رفيق رحلتي ورغم مساعدته لي إلا أن إحساسي بالخوف لم يتركني لحظة واحدة.

ماذا سأفعل في بلد غير مصر؟ كيف سأواجه الحياة، وهل أنا حقاً قادرة على مواجهة هذا مجهول الذي قررت اقتحامه؟ هل قررت اقتحامه بإرادتي أم أنني دفعت دفعاً لاختراقه؟ وكم سأدفع ثمناً لاقتحامي هذا المجهول؟

* * *

بصعوبة شديدة فهمت حديث حسينة وأمها وشقيقتها – الذي كان خليطاً من العربية والفرنسية – وإن كان دفء

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

استقبالهم لي سرى في كياني كله فشعرت باطمئنان جلب النوم إلى جفوني.

بدلت ملابسي ودسست جسدي تحت الغطاء ورحت أتأمل السقف والجدران. هل هذا السقف وهذه الجدران بشر؟ أم هو البيت؟ قطع تأملي وإحساسي بالأمان بين هذه الأسرة الطيبة رؤيتي لحسينة وشقيقتها عريانتين من كل ملابسهما، وكأنهما لم تفعلا شيئاً غير عادي، اندستا بجواري تحت الأغطية، وفي دقائق راحتا في سبات عميق، وأنا أبحث عن تفسير لهذا التعري، وأبتعد بجسدي قدر الإمكان عن جسد حسينة الراقدة بجواري.

لم يكن السرير سريري ولا البيت بيتي، كما كنت أحلم طوال الليل. لم أجد ما أواجه به هذه الحقيقة سوى دموعي.

احتضنتني أم حسينة، وقالت كلاماً كثيراً لم أفهم منه سوى: الله معك.

تناولنا قطع الخبز بالزبد مع القهوة سريعاً، حتى نخرج مع والد حسينة في سيارته إلى وسط المدينة. لفحني الهواء البارد فعدت لارتدي المعطف. ابتسمت أم حسينة التي نبهتني لبرودة الجو ولكني أكدت أن الجو دافئ مستشهدة بالشمس الحمراء التي تملأ الغرفة. لحقتني بالمظلة وهي تحذرني من خداع الشمس. عبرنا المربع السكني المكون من بيوت ذات طابق واحد تحيط بكل بيت حديقته الخاصة.

تساقط المطر بغزارة، فاحتمينا بمظلات المحلات التي فاجأتني بغناء أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والشيخ إمام وأحمد عدوية.

شربت أصواتهم، وشربت اللهجة المصرية التي احتفى بها كل من سمع صوتي من الباعة والمشترين في المحلات التي دخلناها.

طال الصمت بيني وبين حسينة ونحن جالستان أمام بحيرة البط في حديقة الحيوانات. لم يقطع صمتنا سوى دعوتي لها أو دعوتها لي للتدخين. الصوت الوحيد في صمت العالم حولنا كان نحيباً خافتاً مني ومنها. لم أكن أعرف هل كنت أبكيها أم أبكي نفسي؟ كنت أعرف أنها تبكي خديعة علاء لها، كما تعتقد. وكنت أبكيه، هذا الحلم الذي انخطف سريعاً، جاء إلى تونس، التقى بها، أقام شهوراً قليلة بين آلاف العاطلين عن العمل من أبناء تونس، وعاد إلى مصر ومنها إلى السعودية، ثم إلى مصر محمولاً في صندوق للموتى.

هل سألقي مصيرك يا علاء أم أنني سوف أعود إلى مصر، وأتذكر طرقاتك على باب بيتي، أجتر ابتساماتك التي ملأت أيامنا؟ أعيش تدفق عطائك لي، وأبحث عنه بين آلاف البشر، سألتقي بهم فلا أجده، فقد رحل معك. وماذا أقول لها؟ أصرخ في وجهها وفي وجه الموت: علاء لم يخدعك أنت فقط يا حسينة، فقد خدعني أنا أيضاً. خدعني بموته وأخذ معه إحساسي بالأمان الذي ملأ حياتي لمجرد أنه موجود.

وماذا عن علاء، ألم يخبرك بموعد عودته لي؟

قطعت صمتها بعد أن يئست من أن أبدأ أنا بالإجابة التي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انتظرتها منذ وصولي. ماذا أقول لها؟ علاء لم يكن مجرد صديق، كان صديقي الأقرب. ما زلت أشعر بيده تمسح على شعري، بدفء صدره يحتوي ألمي ودموعي، بفرح طفل في عينيه وهو يراقب فرحتي الداخلية.

- علاء بخير، سافر للعمل في السعودية ولكن في منطقة نائية، ومن الصعب اتصاله بك منها. سوف يعود قريباً إلى مصر.

لم أفكر بكذبتي التي ألقيتها وتمنيت أن أصدقها أنا أيضاً كما صدقتها حسينة. تمنيت أن تكون هي الحقيقة.

امتلأ البيت بصديقات حسينة وأشقائها وزوجاتهم وأطفالهم. جاؤوا ليرحبوا بي. خيوط الألفة نسجت سريعاً بيني وبينهم، حتى أنني لم أحتج لمساعدة أصدقاء أصدقائي من العاملين بجامعة الدول العربية أو الكتّاب، فقد قدم لي فقراء الشعب التونسي كل ما أحتاجه ولم أحتج سوى للإحساس بالأمان في أول أيامي بعيدة عن مصر.

فقراء وعاطلون عن العمل وقسمهم رأس سي الحبيب بورقيبة. تمنيت أن أبقى بينهم فترة أطول ولكن لم أستطع. كان علي أن أسرع بالذهاب للجزائر لكي أستلم عملي بها، لألملم ما سأحصله من نقود، ربما أتمكن من العودة إلى مصر بمبلغ أستأجر به بيتاً يصلح لسكنى البشر يأويني وزوجي. وألملم داخله ما تبقى لعلاقتنا من إمكانية الاستمرار. أنفخ في هذا الذي تبقى علّه يقوى على ما أكلته سنوات إجهاض الحلم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جهزت لي أم حسينة ترموس شاي وبعضاً من الأطعمة، ولم تنس أن تحذرني من الاحتكاك بالشاوية، وهم سكان المدينة التي سأعمل بها. لم تكن تدرك أن تحذيرها هذا يصيبني برعب. فكرت معه أن أعود من حيث أتيت منقذة نفسي من مهانة الخوف. ولكن بريقاً خاطفاً جاء معادلاً لرعبي شدني لمواصلة رحلتي في القطار المتجه من تونس إلى الجزائر.

* * *

القطار ينهش لحمي وسنوات عمري. قطار تأكيد الغربة، صوت ارتطام العجلات بالقضبان الحديدية يعجل بإلقائي في المجهول.

أواجه التجربة بدموع كاوية هي دمي يتساقط على وجنتي، وعصارة قلبي الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت اليد الشريرة التي تحاول خنقه.

أشباح الزيتون الخضراء على طول الطريق. أنياب الأرز تنغرس حادة في أعماق روحي. جبال الرعب الملونة بالأخضر والبنفسجي تسبق القطار، تقترب مني، تطبق على صدري، تضغط، تعتصر آخر قدرة لي على التماسك. أصرخ. يرتد صراخي إلى صدري، انتحب، تسمعني فتاة تجلس بجواري.

- ماذا بك؟

- تركت مصر.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ابتسمت بدهشة واستنكار.

- أنها أول مرة أترك فيها بلدي وأهلي.

- لا ينبغي أن تبكي. تماسكي حتى تستطيعي مواجهة الحياة بمفردك.

تحدثت عن السفر وأهميته كتجربة وعن الأوطان التي لا توفر كسرة الخبز. وضرورة البحث عن كسرة الخبز في بلاد أخرى. وعن تركها لأهلها في تونس العاصمة للالتحاق بالعمل في فندق بمدينة على آخر الحدود التونسية. حديثها طيب وصادق، ولكن القطار يسرع متجهاً إلى الغرب، و بلدي بعيدة في الشرق.

تركتني في محطة نزولها، تشبثت عيناي بها وكأن عمراً طويلاً كان بيننا. أوصت ركاب العربة بي وحيتنا وغابت.

شربت وركاب العربة الشاي، وشاركوني طعامي ودخّنا معاً. تحدثنا عن مصر. سكبوا وجدانهم: مصر، وعبد الناصر محفوران عميقاً. خيط بين الحب والألم في أسئلة كثيرة وجهت لي تحمل اليأس والرجاء والأمل. ذاكرات خصبة تستدعى الماضي الجميل لتأكيد الحسرة على حاضرها القبيح.

دخل العربة ضابط شرطة جزائري لمراجعة جوازات سفر الركاب. نحن إذن نقترب من الجزائر. تأملته بعمق محاولة اختراق حدود الجزائر الإنسانية قبل أن أخترق حدودها الجغرافية. شاب في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره. رشيق بشرته سمراء وعيناه زرقاوان وشعره أصفر،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عابس الوجه وفظ. بغلظة مقبضة أخذ جواز سفري، قلبُه، سألني عن تأشيرة الدخول.

- لم أحصل عليها، قالوا لي في سفارتكم بالقاهرة إنني أستطيع دخول الجزائر بدون تأشيرة.

ألقى الجواز متجهاً لراكب آخر قائلاً لي:

- لن تدخلي الجزائر.

بتحدٍ قلت له:

- لن يغير دخولي الجزائر مجرى حياتي. سوف أعود في نفس القطار إلى تونس.

تذكرت ابتسامة ضابط الجوازات في مطار تونس، حاولت أن أبرز تعامله العدواني معي بتبريرات ربما لم تخطر له، فقد تصورت أنه موقف. مني كمصرية كرد فعل للمعاهدة التي وقعها السادات مع إسرائيل، أو ربما لأنني كنت أدخن.

ربت ضابط الحدود التونسي الذي غادر تونس وشاركنا العربة على كتفي مبتسماً وقال:

- هذه طريقة الرجل الجزائري في التعامل، هو لا يقصد الإساءة لك.

- ربما، ولكن تونس والجزائر يكادان أن يكونا قطعة واحدة، فلماذا هذا الفرق الحاد في شكل التعامل بينكما؟

- لا أعرف، ولا تفكري في هذا الأمر، فقط انظري من خلف زجاج العربة واستمتعي بمشاهدة الطبيعة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كان الطريق من تونس إلى الجزائر بالقطار رحلة مستقلة بذاتها. الجبال مختلفة الارتفاع على الجانبين تقترب، ويضيق الطريق حتى يتسع بالكاد للقطار في بعض المناطق، وفي مناطق أخرى تتباعد الجبال، فيتسع الكون كله في حضن الجبل الملون.

وفي مناطق أخرى يتصل الجبل بجسر ضيق ضئيل يحمل القطار، ويحملنا، وفي كل لحظة كنت أشعر أنه حتماً سينقلب.

وفي هذه اللوحة لم يختف لون واحد من ألوان المستحيل.

شاهدت كل هذا الجمال بعيون تقطر مرارة فرأيته قبحاً.

فجأة اهتزت بنا العربة، وسمعنا صوتاً قوياً أعجزتنا لحظة عن الحركة: وفي اللحظة نفسها توقف القطار عن السير. أصوات فزعة لأقدام الركاب الثمانية المتبقين في القطار بعد أن أفرغ ركابه على طول الطريق. تجمعنا في عربة واحدة كبديل عن فهم ما حدث.

جاء ضابط الحدود التونسي وأخبرنا أن القاطرة الأمامية خرجت عن القضبان، وأن بيننا وبين سوق أهراس أول مدينة جزائرية حوالى خمسة كيلومترات فقط، وأنهم سوف يتصلون بالمدينة لإرسال فرقة عمليات لإعادة القاطرة إلى القضبان.

جلسنا جميعاً في صمت، تتطلع عيوننا إلى الباب، وتلتقط آذاننا دبيب الأقدام لعل أحداً يحمل لنا خبر إنقاذنا من حصار الجبل. خمسة كيلومترات تفصلنا عن الحياة وتقرر الغد

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لثمانية أشخاص، والليل يقترب، فالساعة كانت الخامسة مساء. ساعة فاصلة بين الليل والنهار. إنها الخامسة. ما زالت هناك بقية لأشعة الشمس، وبينها وبين السادسة ساعة تغيب فيها الشمس ولا تبقى سوى ظلمة الجبل.

دبت الحركة مع صمت الركاب وبقيت على صمتي. خرجوا جميعاً من العربة ليستطلعوا الأمر وتركوني بمفردي. انكمشت على نفسي لا أصدر سوى حركة واحدة: النظر إلى ساعتي حاسبة الوقت الذي تقطعه العقارب متجهة إلى الظلام. ومع حركة العقارب يتحول قلقي إلى توتر.

حتى عبد الحكيم، الطالب التونسي الذي يدرس بالجزائر، تركني وخرج رغم أنه لم يتركني طوال الرحلة. ليته يعود.

جاء أخيراً عبد الحكيم معتذراً عن خروجه، متعللاً بأنه أراد أن يعرف ماذا حدث ودعاني للخروج من العربة والسير قليلاً بجوار القطار.

وقفت حبة رمل أمام الجبال الشامخة. أزهار الصخر البنفسجية تبتسم لي، تلمس أناملي. أوراق ضئيلة وسيقان مغروسة في تجاويف الصخور مانحة للحياة جمالها، ومانحة لنا جمال الحياة.

اغتالت الساعة الخامسة كل الساعات. خنقت العقارب الشمس. وخنقني سجني في العربة.

بدأ جسدي يرتعش من لسعات البرد ثم من التعب والإعياء، ومن لهاث العقارب، حتى وصلت للحادية عشرة ولم يتحرك القطار، ولم يعد بقية الركاب إلى العربة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كان عبد الحكيم يعود ليطمئن علىّ، وفي كل مرة يطلب منى أن أهدأ وأستريح. وفي المرة الأخيرة وضع معطفه على كتفي، ووقف على باب العربة وطلب منى أن أحاول النوم. وبابتسامة طيبة ملأت وجهه قال: «لا تخافي سوف أقف خلف الباب لحراستك».

أيقظتني حركة الأقدام المتجهة للعربة من غفوتي، فُتح الباب، ودخل ركاب القطار معلنين جميعاً أنه سيتحرك فوراً. كانت الواحدة بعد منتصف الليل.

وصل القطار سوق أهراس. نزلنا جميعاً إلى المحطة. دخلنا حجرة ضيقة. توجه ركاب العربة لختم جوازاتهم، ووقفت بعيدة حتى أعود للقطار لأعود به إلى تونس.

جاء ضابط الحدود التونسي بابتسامة ظافرة في عينيه:

- هيا يا أستاذة لتُنهى إجراءاتك، فقد تحدثت مع الضابط الجزائري وسمح لك بالدخول على أن تحولي مائتي دولار. ليس من المعقول أن تقطعي هذه المسافة ثم تعودين. ولكن لولا توقف القطار ولولا أنك امرأة لما نجحت محاولتي.

شكرته، وأنهيت إجراءاتي، وودعته خارجة من الغرفة، إلى رصيف سوق أهراس، حاملة حقائبي لا أعرف إلى أين أذهب.

فوجئت بعبد الحكيم يحمل حقائبي ويطلب منى أن أسير معه، لم يكن أمامي بديل سوى الاستسلام لما سوف يأتي. انضم إلينا شاب أمريكي وصديقته كانا معنا في نفس القطار، وسرنا نحن الثلاثة بقيادة عبد الحكيم نبحث عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فندق نلقى على فراشه ساعات الإنهاك الطويلة.

أغوص في الجير صعوداً وهبوطاً، في طرق المدينة الملتوية الضيقة المنحوتة من الصخر. البيوت والمحلات والأرصفة كلها بيضاء جيرية الملمس صخرية الروح. طرقنا عدة فنادق رفضت استقبالنا، فالقانون كما قالوا يمنع استقبال النزلاء بعد العاشرة مساء. سيارات الشرطة تجوب الطرقات والشوارع. أوقف عبد الحكيم واحدة منها وتحدث مع سائقها ونحن على بعد خطوات منه. أشار لنا أن نصعد إلى السيارة. سيارة شرطة وجنود ولكن لذة الدفء تسري في عروقي بددت حساسيتي من الشرطة. توقفت السيارة أمام قسم للشرطة ودعانا الضابط للنزول. هل سنقضي ليلتنا في القسم؟

أجرى الضابط عدة اتصالات تليفونية، ثم دعانا مرة أخرى للسيارة. حملنا أجسادنا وصعدنا. توقفت السيارة أمام أحد الفنادق ونزل السائق منها. طرق الباب الخشبي الكبير لمبنى قديم من الصخور البيضاء. فتح الباب ونزلنا من السيارة بقيادة الضابط متقدماً موكبنا. دخلنا ممراً طويلاً مظلماً، انتهى بدرجات ثلاث، ثم مساحة مربعة مكشوفة بلا سقف. دخلنا غرفة كبيرة بها ثلاثة أسرة لأربعتنا.

رائحة العفن والعطن تملأ المكان والرطوبة تنز من شقوق الجدران التي تساقط طلاؤها ولم يعد باقياً منه سوى بقع متناثرة. أُغلق الباب علينا ودخلت الأمريكية وصديقها تحت الأغطية الصوفية الخشنة. لم أستطع حتى الجلوس على السرير. إحساس بالاشمئزاز منعني. اعترضت على

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المكان.

قالت الأمريكية: «منذ لحظات كنا نحلم بسقف وجدران، والآن لدينا سقف وجدران وسرير وغطاء، هيا نامي». رفعت الغطاء بأطراف أصابعي وكأني سأجد بقايا من استخدموه قبلي تحته.

استيقظت على وقع الخطوات الثقيلة المقيدة بسلاسل نوم مجهد وغير مكتمل في المساحة المربعة المكشوفة خارج الغرفة.

طرقات على الباب تتعجل قيامنا وخروجنا من الغرفة. كان صاحب الفندق يأمرنا بتركه قبل الثامنة صباحاً. خرجنا إلى المربع المكشوف، ونزلنا سلماً من عشر درجات إلى مربع مكشوف آخر به دورتان للمياه مغطاة بقطع من الخشب عليها علبة صفيح يملأها النزلاء ليغتسلوا، ويملأوا بها علب صفيح مماثلة في دورات المياه التي يقف أمامها طابور من النزلاء. رششت بعض الماء على وجهي وصعدت الدرجات العشر إلى الغرفة لآخذ حقائبي وأهرب من هذا القبو.

سرت في شوارع المدينة الباردة شديدة البرودة، البيضاء شديدة البياض. يحمل حقائبي عبد الحكيم رافضاً أن أحملها متبادلاً معي بعض الكلمات القليلة عن مصر لامساً شرودي ودهشتي واضطرابي، ولامساً دموعاً حبيسة الخجل منه، فهو في موضع أحد طلابي الذين دَرّست لهم في مصر، والذين سوف أدرس لهم في الجزائر.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سرت في مدينة الجير البيضاء، أبحث عن سنترال لأتصل بزوجي في القاهرة، تليفونه في العمل لا يرد، وتليفون صديقتي عفاف أيضاً لا يرد. أعطيت عاملة السنترال رقم تليفون صديقي هاني. كنت سأجرب كل الأرقام التي معي، أنتظر رد رقم منها لعلي أسمع صوتاً من هناك.

- القاهرة معك..

- القاهرة معي..

ارتعش جسدي وعلا صوت قلبي. القاهرة معي. شوارعها النابضة بخطى أحبائي، عبق التاريخ في شقوق الجدران، كنائسها، جوامعها، حواريها، رائحة الأزهر والحسين، المتحف المصري، الأهرامات والقلب يسجدُ ويصلي.

صوت هاني صديق العمر ولهفة السؤال ووجع الكلمات ورجاء أن أتوقف عن البكاء وأتحدث. صوتي مخنوق بغصة الندم «أنا بخير لا تقلقوا».

* * *

اكتشف مدينة جديدة تحت رذاذ المطر. دهشة الاكتشاف أخذتني. لم يوقف المطر المارة. الجميع يواصل سيره، رجالاً ونساء وأطفالاً. استوقفني زي النساء الأبيض الذي يشبه «الملاءة اللف»، والذي يغطي كل الوجه فيما عدا عيناً واحدة للرؤية. أتعجل المعرفة. معرفة الناس هنا. من هم،وما هو نمط حياتهم، كيف يفكرون؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم أتوقف عن طرح الأسئلة على عبد الحكيم، حتى وصلنا إلى موقف الأتوبيسات، لاستقل الأتوبيس الذي سينقلني إلى مدينة خنشلة في الشرق الجزائري حيث سأعمل.

افترقنا أنا وعبد الحكيم. فقط شكرته، وتمنيت أن أراه مرة أخرى. لم أقل له: ابق معي حتى خنشلة. لم أستطع أن أنقل له خوفي من كل شيء، من الناس حولي، ومن الطريق، وما ينتظرني هناك في خنشلة.

السيارة تقطع الطريق الذي لا ينتهي. الجبل على يسارها وواد عميق على يمينها. وطريق يضيق ويتسع وفقاً لإرادة الجبل.

أغصان الأشجار الجافة المتشابكة المستقرة في القاع، متسلقة إلى أعلى ملتحمة بالطريق.

الجبل يتحرك مع السيارة، والسيارة توغل في أرض لا أول لها ولا آخر. أين المدن والقرى؟ أين البيوت والناس؟ أرض واسعة خضراء بلا بشر تنقلنا إلى غيرها.

تغيب الشمس ويظلم الطريق. كل شيء يغيب إلا الجبل الراسخ في مكانه كالوحش يتوغل بظلمته داخل نفسي.

كان في انتظاري الأستاذ متولي أحد المدرسين المعارين بمدينة خنشلة. فقد اتصلت به قبل مغادرتي سوق أهراس. لا أعرف كيف عرفني وكيف عرفته. فأنا وهو لم نلتق من قبل. كل ما أعرفه عنه أنه ابن قريتي التي لم أعش فيها كثيراً. ترحابه الشديد وتلقائيته الريفية أعادني إلى قريتي، إلى لهجة أهلها وأهلي.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صحبني الأستاذ متولي إلى مدرسة شيحانى بشير الثانوية. في طريقنا إلى مبنى الإدارة التقينا بأحد المدرسين المصريين. حياه الأستاذ متولي. قدمني له. شعور بالأمان بدأ يزحف خفيفا إلى نفسي. دفء الوطن يقترب مني.

تبدد شعوري بالأمان وبالدفء عندما أشاح بوجهه معتذراً بانشغاله بمجرد أن عرف أنني بمفردي. تجلى استنكاره في عينيه ومشى.

استقبلنا ناظر المدرسة بحرارة شديدة وبابتسامة فاضت على وجهه الطفل الذي لا يستقيم مع ضخامة جسده. انتقل من مكتبه إلى مقعد بجواري، وقال للأستاذ متولي:

- تستطيع أن تترك الأستاذة الآن فهي معنا.

كيف يتركني وأين سأذهب، وأنا لا أعرف كيف أصل إلى بيته؟

سرت مع الناظر إلى حجرة المدير. رجل تجاوز الخمسين، ملامحه هادئة وطيبة، أو هكذا كان انطباعي الأول، الذي تبدل بمجرد أن تحدث من بين أسنانه عن العمل وقسوته وكيفية التعامل مع الطلبة وضرورة الضرب بيد من حديد على رؤوس هذا الجيل، وأخيراً عن مسئوليتي في تدبير سكن لي زاعماً أن المدرسة ليست مسئولة عن تسكين معلميها

تحدث كثيراً كأنه يقول لي: عودي لوطنك، للحدود الجغرافية لمصر، خرجت من مكتبه أبتلع مرارة لقائي به. علامة تعجب فرضت نفسها على عقلي. تعلمنا ونحن صفار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أن الوطن من الخليج إلى المحيط، وجدان جيل بكامله استوعبته الحدود الجغرافية الأكبر.

- هيا لتوقعي باستلامك للعمل.

قالها ناظر المدرسة ولم تغادر ابتسامة الطفل وجهه.

- لن أوقع. سوف أعود إلى مصر. كيف أعمل في بلد ليس لي فيها بيت؟

- بيوت الجزائر كلها بيتك.

استدعى أحد العاملين بالمدرسة وطلب منه أن يعد المكان المخصص لي.

لم أدخن منذ الصباح، وكاد اليوم أن ينتصف. رغبتي في التدخين تحولت إلى احتياج ملح مع مرور الوقت.

أخيراً حملت حقائبي إلى بيتي في الجزائر. وأغلقت باباً على نفسي. تمددت على السرير الصغير وأشعلت سيجارة التهمتها.

تعرفت على بيتي. غرفة واحدة بها سرير وترابيزة ومقعد ومطبخ فارغ وحمام، وخلف البيت حديقة كبيرة مسورة بسور المدرسة. وتتراص قبله عدة بيوت كلها من طابقين خصصت للعاملين بالمدرسة.

أشعلت سيجارة أخرى مستعيدة كل ما حدث، حاسبة المدة التي سأقضيها هنا.

يا إلهي، كيف ستنقضي كل هذه الفترة؟ تكثفت الشهور بأيامها وساعاتها ودقائقها، وليس أمامي إلا أن أعيشها حتى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تنقضي.

للمرة الأولى أواجه الحياة بمفردي. كان معي في كل مراحل حياتي من ألقى عليهم بحملي: أهلي وزوجي وأصدقائي. وها أنا أحمل نفسي وسنوات عمري الثماني والعشرين وأخوض التجربة.

فتحت حنفية الماء، وجدته مقطوعاً، خرجت، لأطلب بعضاً منه من البيت المجاور، ولاكتشف العالم حولي، ولاخترق حدود الجزائر الإنسانية التي بدت لي على حدودها الجغرافية عصية.

طُرقت الباب المجاور لبابي. فتحت لي امرأة ترتدى فستاناً منقوشاً بنقوش زاهية، تحيط وسطها بحزام الفستان بلا أكمام، عليه جاكيت تريكو.

واربت الباب بعد أن تأكدت أنني الطارق.

- الماء مقطوع أرجو أن تعطيني قليلا منه.

اعتذرت المرأة لأنها كانت بالخارج قبل أن ينقطع الماء ولم تخزن أي قدر منه.

ماذا أفعل؟ ربما أجد في بيت آخر.طُرقت باب البيت رقم 8.

فتحت لي امرأة أوروبية. لا أعرف كيف حدثتها بالعربية؟ ابتسمت لي ومدت لي يدها، ودعتني لدخول أول بيت أدخله في خنشلة. الابتسامة المتوهجة في عينيها جمعت كل مفردات الكلام وعبارات الترحيب. لم أحتج للغة أتحدث مع نادية السوفيتية. فالإنسان كائن فريد مبدع، قبضة يده

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ورعشة شفتيه وومضة عينيه لغة ليس لها مفردات. لغة راقية تتناسب ورقى الإنسان.

تعارفنا. تحدثنا بعدد الكلمات الإنجليزية التي لا تتجاوز العشرين، والتي لا تعرف نادية سواها. بابتسامة هادئة حياني فلاديمير زوجها وخلق تواصلاً إنسانياً بيننا منذ أن شد على يدي ونادية تقدمني له.أعاراني بعض أدوات المطبخ والأطعمة حملها فلاديمير إلى بيتي.

أغلقت باب غرفتي وتمددت على سريري أتطلع في الفراغ والوحدة.الشمس تغيب، تتركني وحيدة مع ليل الغرب. الساعة الخامسة. ما زالت الشمس هناك في الشرق، وبيتي الصغير يردد صدى صوتي ووقع خطواتي، لمساتي في أركانه وزوجي عائداً من عمله. لن يجدني في انتظاره، لن يجد من يسمع طرقاته على باب البيت، لن يجد من يلقي في ابتسامتها مدداً للغد. لمن سيحكي رحلة يومه؟ تركني أرحل، قبل أن نفقد ما تبقى من القدرة على الاستمرار. الطرقات تتوالى على الباب. الأصدقاء يأتون. لست معهم الآن وليسوا معي. الفرح الغائب في عيون عفاف، والألم المكابر في قلب يوسف، وسؤال لن ينطق به عبد الله، فهو لن يقبل الإجابة. وميرڤت تنتظرني في نفس الموعد، وفي نفس المكان على النيل. الحزن الجليل في بريق عيني ميرڤت أختي، صوت الطفلة التي نمت في روحي، يدها الصغيرة تشدني، تتشبث بي وأتشبث بها، الحبل السري في رحم الأم لم يقطع شرياناً ممتداً بين القلب وبين الروح.

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم تكن المرة الأولى التي أقف فيها لأشرح لطلابي معنى الفلسفة. الدرس الأول في كل مقررات مادة الفلسفة. كنت مضطربة. هم يريدون أن يعرفوا، أن أقدم لهم ما عندي، وأنا أريد أن أعرف، أن يقدموا لي ما عندهم. من يبدأ؟ هل أبدأ أنا بتعريف معنى الفلسفة، أم أدعوهم ليعرفوني بالشعب الجزائري؟

كانت موضوعات الفلسفة المقررة هي نافذتي الأولى للمعرفة في تجربتي. لا هي موضوعات عربية ولا هي موضوعات فرنسية. هي خليط. ترجمت القضايا الرئيسية كما هي من الفرنسية بلغة عربية مهجورة وتراكيب ركيكة تطرح الرؤى من سقراط حتى هايزنبرج بحياد علمي دقيق، يعقبه تعليق وتدخّل يلوي الحقائق لتصبح جميعها إسلامية، فالجزء الفرنسي مع داروين ولامارك ونظرياتهما العلمية في التطور وتُرجم بأمانة ليعقبه التعليق الموضوع من وزارة التعليم مع ما قاله القرآن من النطفة إلى العلقة إلى ما لا ندركه في الأرحام.

كنت أقع في التناقض الموجود على صفحات الكتب المقررة فأنا سوف أنقل موقفي لهم، وهم سوف ينقلونه إلى ورقة الإجابة. وورقة الإجابة محدد لها سلفاً نموذج لن يخرج عما في الكتاب.

الأيام الأولى تمر بطيئة وثقيلة، وأنا حبيسة جدران المدرسة وبيتي من الخامسة مساء حتى الثامنة صباحاً. أقف خلف قضبان نافذة حجرتي أتطلع إلى الجبل. أكتب الرسائل إلى مصر وأحلم بالعودة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

قررت الخروج لشراء طعام رغم البرد الشديد وعدم استقرار الشمس وتساقط المطر وتوقفه واشتداد الرياح. سرت في الطريق من المدرسة إلى وسط المدينة. في كل خطوة أخطوها أتذكر تحذيرات أم حسينة لي من الاختلاط بسكان المدينة. كنت أشعر أن خوفي يسبقني ويلتف حول قدمي. انتبهت لسرعة خطوتي وعدم توازنها وكثرة تلفتي حولي. هدأت من روعي وبدأت أتأمل البيوت ذات الطابق الواحد المتلاصقة، والرجال والنساء والأطفال جالسين أمامها يتطلعون إلى الفراغ الممتد أمامهم حتى تصطدم عيونهم بالجبل.

وصلت إلى المعرض أو الجاليري بالفرنسية والجزائرية. مبنى مكون من ثلاثة طوابق تباع فيه الأطعمة والأقمشة ولعب الأطفال والكتب. وقفت في طابور طويل انتظر د وري، ومن طابور إلى آخر حتى اشتريت ما أحتاجه وعدت أكثر هدوءاً فقد اكتشفت مبالغة أم حسينة فيما قالت.

أغلقت حجرتي عليّ وجلست على حافة السرير أقرأ بنصف عقل. شعور بالملل والسأم استبد بي. استولت عليّ رغبة جامحة في أن أخرج من البيت إلى الشارع، إلى البيوت، أن أتحدث مع إنسان، أن أسمع طرقات بشر على باب بيتي، أن أشرب الشاي الساخن مع آخرين. كيف، والحياة تتوقف هنا في السادسة مساء ولا يتبقى من أثر لها سوى مواء القطط وهوهوة الكلاب وزئير الرياح؟ وخلف الشباك فراغ ومدينة نائمة أو ميتة ورياح تعصف ستقتلع البيوت والأشجار والجبال، وستقضي حتماً على كل ما هو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ثابت بالأرض. ستقضي علي.

عواء الرياح يشتد، صوته مخيف مرعب، والسماء تبرق فجأة بضوء ينسكب للحظة في وسط الغرفة ويختفي. صاعقة تنفجر. تهتز جدران المنزل، تتفجر السماء بالسيول.

أتجمد تحت أغطيتي، ليس من البرد فبالغرفة مدفأة، ولكن من الألم. أتلاشى داخل نفسي. أسقط في بئر وحدتي، أتكور، أضغط بكل أعضائي على أحزاني، أستجدي الصوت، صوت الإنسان.

في الصباح فتحت باب بيتي على فرح الثلج. الثلج يغطي الأرض والجبل. لأول مرة أراه في حياتي. فرحت، قفزت في الهواء، ضحكتي جلجلت في المكان. غصت في الثلج تحملني أجنحة الفرح. كورت الزغب بين يديّ وقفزت قفزات عالية. وبكل قوة ألقيت بكرة الثلج بعيداً في اتجاه الشرق. ما زالت الطفلة في أعماقي حية.

* * *

الخطابات ملقاة على منضدة كبيرة تتوسط حجرة الأساتذة. أعرف أنه ليس بينها خطاب لي، ولكنني مددت يدي، لمستها، قرأت كل الأسماء إلا أسمي.

كاد ما معي من نقود أن ينفد وما زال أمامي وقت طويل حتى يصرف راتبي، وما معي لا يكفي لأيام، ولا أعرف متى يعود الأستاذ متولي من الجزائر العاصمة حتى أقترض منه. ذهبت لأسأل سكرتيرة المدير عن موعد صرف راتبي. بانت أسنانها المركبة فوق بعضها وهي تبتسم وتلوك لبانة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في فمها، وكعادتها منذ أن رأيتها لا تقف ثابتة بحذائها المبالغ في ارتفاعه. وبملابسها الفرنسية وجسدها الدقيق، قالت:

- ما زال أمامك وقت حتى يصل إشعار بصرف راتبك، ولكن من حقك أن تطلبي سلفة من المدير.

تركتني لتستأذن لي منه في الدخول.

- المدير في انتظارك..

دخلت حجرة المدير من قبل ولكنني لم ألحظ صورة ابن باديس المعلقة على الحائط جالساً على الأرض مرتدياً جلباباً أبيض فاتحاً أمامه كتاباً. كما لمحت صورة معلقة لشاب شدني وهج عينيه وابتسامة لا تحس إلا بالقلب وأنف حاد واسم مكتوب تحت الصورة «شيحانى بشير أحد شهداء ثورة التحرير». في حضرة الشهيد كنت. حمل السلاح والحلم وصعد إلى الجبل. من تركت يا بشير؟ أما، أختاً، حبيبة؟ وعدت لهم محمولاً بين أيدي رفاقك. هل حملوا جثتك أم حملوا حلمك بالجزائر؟.. ماذا حققت من الحلم وماذا تركت لرفاقك ليحققوه؟

- ماذا تريدين يا أستاذة؟

- أريد سلفة من المدرسة حتى يصل راتبي.

- آسف..

لم أنتظر حتى يستكمل كلامه وتركته وخرجت.

وجدت فريدة سكرتيرته في انتظاري..

- هل وافق على السلفة؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- لا.. رفض..

- أستاذة.. هل أحضرت معك الشاي المصري؟

- ماذا.. نعم أحضرت.

- انتظريني، سوف آتي لأشرب معك الشاي اليوم!!

تركتها وقد أزالت عني بعضاً من إحساسي بالمهانة التي سببها لي المدير.

انتظرت فريدة. انتظرت زائراً سوف يطرق بابي. وقع الخطوات يقترب من بيتي. دقات الباب أسمعها. أفتح لأول زائر، وأسعد بها. شربنا الشاي. تحدثنا. دخّنا معاً. وقبل أن تغادر البيت أخرجت نقوداً وقدمتها لي.

* * *

استمر سقوط الثلج أياماً والشمس تشرق وتغيب في اليوم الواحد أكثر من مرة. يقولون: في الجزائر ترى الفصول الأربعة في يوم واحد. صرت جزءاً من آلية العمل. في السابعة أستيقظ. أبدأ حصتي الأولى في الثامنة. ومن فصل إلى آخر حتى الثانية عشرة ظهراً. أعود ويعود العاملون في الجزائر إلى بيوتهم لتناول الغداء، ثم نواصل يوم العمل في الثانية بعد الظهر حتى الخامسة مساء.

استغرقني الإعداد اليومي للدروس ومتابعة طلابي وتصحيح أوراقهم. وفي يوم الخميس كنت أذهب إلى مكتبة البلدية. مكتبة صغيرة وفقيرة ولكنها موجودة على أي حال. ماذا خلف الجبل؟ وماذا بعد خنشلة؟ بدت لي المعرفة مستحيلة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قبل أن أستعد للخروج لزيارتي الأسبوعية للمكتبة سمعت طرقات على باب بيتي. هذا الباب الذي لا يقترب منه أحد سواي. من يكون؟ كنت وأنا هناك أعرف من طارق بابي.

فتحت. وجدته أحد المدرسين الفرنسيين العاملين معنا بالمدرسة. لم أتوقع أن يكون هو زائري. دعوته للدخول، وعلامات الاستفهام عن سبب الزيارة تقفز رغماً عني إلى وجهي.

عرفني بنفسه. «ميشيل». وانتظرت أن يقدم تفسيراً لزيارته.. باختصار شديد أبلغني دعوته للخروج إلى إحدى الغابات القريبة. أخيراً سوف أخرج من خلف أسوار المدرسة. أنها فرصة لأتعرف خارج حدود العمل الضيقة على زملائي. قفزت الطفلة الهوجاء داخلي. سوف ارتدي الجينز وألعب وأجري في الغابة. رحبت بشدة وأنا أضغط على نفسي حتى لا أقفز في الهواء وأصفق بكلتا يدي. سألته: مَنْ من المدرسين سيذهب معنا؟

قال: أنت وأنا وزميل جزائري وصديقته..

- فقط؟

- نعم فقط..

انتزع مني الفرحة وحرك داخلي جيشاً بأكمله للدفاع عن نفسي.. كيف يجرؤ على مثل هذه الدعوة؟ وكيف وافقه الجزائري؟ قد يكون مبرراً له كفرنسي هذا التصرف ولكن كيف أقبله من الجزائري؟

- آسفة. تصورتها رحلة خاصة بالمدرسين جميعاً؟ ولكن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

رحلة خاصة بنا لا أستطيع قبولها.

- لماذا؟

- أنا لا أعرفكم. وأنتم لا تعرفونني، ومثل هذه الرحلات لا تكون إلا بين الأصدقاء.

- إنها فرصة لنتعارف.. وقد نصير أصدقاء.

- لا أستطيع أن أفترض شيئاً قد لا يحدث.

- هل أنت خائفة.

- مما أخاف؟ لو كنت خائفة لما تركت بلدي وزوجي وقطعت هذه المسافة وجئت إلى هنا.

- إنها شجاعة وجرأة منك، ولكن هل تاهت شجاعتك عند سلم الطائرة، وهل ستظلين حبيسة جدران المدرسة.

- لا هذا ولا ذاك. ولكنني امرأة عربية، وفي عرفنا مرفوض أن تخرج المرأة مع رجل غريب.

- أنت لست عربية، أنت مصرية، ولكم تراث وحضارة وعادات وتقاليد تفصلكم وتميزكم عن العرب.

- لست أنت الذي تقول إذا كنت أنا عربية أم لا! ومسألة عروبتنا ليست مطروحة للنقاش، ثم لا تنس أنك ضيف على بلد عربي له عاداته وتقاليده التي يجب أن تحترمها، ومنها أن زيارتك لي سلوك مرفوض مني ومن الآخرين.

خرج متأففاً يلعن أياماً انتزعته من نور حضارته الأوروبية وألقت به إلى ظلامنا العربي. لعنته ولعنت تعاليه. لا أنكر احتياجي الشديد لمثل هذه النزهة ولا أنكر احتياجي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

للآخرين، ولا أنكر أنني لا أستطيع تلبية دعوته.

ارتديت معطفي متجهة إلى المكتبة، وبمروري أمام بيت نادية نادت لي ودعتني للدخول، كان فلاديمير يغسل الأطباق. بانفعال شديد حكيت لها ما حدث من الفرنسي. ربتت على وجهي وقدمت لي كأس نبيذ.

* * *

تعرفت سريعاً على «رفيقة» في حجرة الأساتذة. ولأنني لا ألتقي بها كثيراً - فهي طالبة في كلية الطب وتدرس عدداً محدوداً من ساعات اللغة الفرنسية - فقد فوجئت بزيارتها وبدعوتها لي للذهاب للحمام التركي.

شربنا الشاي ودخنا سيجارتين ثم انطلقنا معاً إلى الحمام التركي.

باب خشبي كبير وقديم يئز تحت يدي رفيقة وهي تدفعه بقبضتها. ممر طويل وباب خشبي آخر أصغر حجماً، تدفعه رفيقة، تدخل منه إلى صالة كبيرة في أول أركانها بعد الباب مباشرة تجلس امرأة خلف مكتب مرتفع ظهرت أسنانها الذهبية. بمجرد أن ابتسمت مرحبة سقطت عيناي على جسدها فاصطدمتا بنصف ثدييها يبرزان من فتحة فستانها الأصفر الحرير المطرز بخيوط مذهبة. مدت يدها المثقلة بالذهب لتسلم علينا. قبلتها رفيقة القبلات الأربع الجزائرية. وقبلتني المرأة القبلات الأربع أيضاً مرحبة بكلام كثير بعد أن قدمتني رفيقة لها.

انتشرت في الصالة أجساد نساء ملفوفة في قطع من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

القماش الملون وبرانس حمام، جلسن على الأرض يتنشفن، وأخريات جالسات بملابسهن يبعن بضائع مختلفة: ذهب وأقمشة حريرية بألوان زاهية وحلوى ومياه غازية. حيّت رفيقة بعضهن، وخلعت فستانها وبقيت بملابسها الداخلية وانتظرت أن أفعل مثلها. ترددت، قالت بحزم: هيا.

خلعت فستاني، وسرت خلفها بملابسي الداخلية. دفعت باباً خشبياً آخر قديماً ومشبعاً بالماء، ودخلنا إلى الحمام المعبأ برائحة ما يلفظه الجلد مختلطة برائحة الصابون والماء وعرق النسوة. البخار كالدخان يملأ المكان، وذهبنا لملء جراد لنا من البناء الدائري الذي لا ينضب ماؤه المغلي. بالقرب منه صنابير مياه باردة. نساء عاريات مستغرقات في دعك أجزائهن بعناية واهتمام. يتعاملن مع أجسادهن كأجزاء منفصلة، لكل جزء اهتمام خاص به. القدم واليد والثدي والفرج والظهر والبطن. كل جزء له حميمية خاصة، ربما لا تقل عن الجزء الآخر، إلا أنها تختلف.

ملأت رفيقة جردلين، واحداً بالماء المغلي وآخر بالماء البارد.

- هيا اخلعي ملابسك؟

- لا أستطيع.

- ليس لديك شيء زائد عن هؤلاء.

خلعت كل ملابسي وأبقيت على ما يستر عورتي. بدأت رفيقة ممارسة مراحل طقس الحمام معي. رشت بعض الماء على جسدي المشبع بالبخار، ولبست قطعة قماش سوداء

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خشنة في يدها اسمها الكيّاسة، ودعكت لي جسمي كله. خرجت أجزاء سوداء من جلدي الذي أنهك تحت يدها. انتهت مني وقالت «هيا اغسلي شعرك» وفرغت لنفسها.

اختنقت من البخار ورائحة النسوة وجلدهن الأسود وجلدي. رؤيتي للأجساد العارية أصابتني بالقرف.

- رفيقة أريد أن أخرج.

- أنا أيضاً تعبت.

عدنا إلى الصالة. جلسنا على الأرض عاريتين، إلا من ملابسنا الداخلية. شربنا زجاجتين من المياه الغازية وأكلنا بعض الحلوى. تنفست ملء رئتي هواء لا يحمل كل عرق النسوة وإن كان يحمل بعضه. عدنا للحمام مرة أخرى لاستكمال الطقس. دعكت لي رفيقة جسدي بالصابون عدة مرات، وبدأت في دعك جسدها.

انتهت بعض النسوة من كل مراحل الطقس وبقين للثرثرة.

تحول الماء من البئر إلى الجرادل في سرعة شديدة. امرأة لا يغطي عظامها إلا قطعة رقيقة من الجلد المشدود ولا يظهر كونها امرأة إلا ثديان متدليان إلى سرتها. لكزت رفيقة لترى المومياء التي أراها.

- يالمهبولة هذه الكياسة. إنها تعمل هنا وتبين هنا، تنقل الماء بالجرادل وتكبس من تريد مقابل دينار.

جسدي كله تفكك بعد الحمام، وإلحاح كل احتياجاتي لا يقاوم. أريد أن آكل وأدخن وأنام.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ذهبت ورفيقة إلى بيتها لتناول الغذاء. وفي طريقنا التقينا بمن يعرفوننا من زملاء وطالبات وطلبة. وجميعهم بعد التحية يردد: «بالصحة الحمام» فقد فضح احمرار وجهينا وجلدنا أننا كنا في الحمام. كدت أتوارى حتى من نفسي إلى أن وصلنا إلى البيت. نفس الباب الخشبي الكبير فتح، ونفس الممر الطويل مررنا فيه.

في حجرة ملونة بألوان زاهية جلسنا. الجدران مطلية بالأخضر، وقطع الإسفنج الملقاة على الأرض مكسوة بأقمشة منقوشة بكل ألوان الورد. حتى المدفأة المشتعلة بالكيروسين مطلية باللون الأحمر، تخترق مدخنتها سقف الحجرة إلى سطح البيت.

أتت أم رفيقة مرحبة بي. وتبعتها شقيقتها الكبرى التي تبدو أكبر سناً حتى من أمها، وإن اشترك ثلاثتهن في ملامح واحدة دقيقة. بشرة بيضاء وعيون رمادية ووجوه هادئة بشوشة.

على صينية نحاس وضعت فوق حامل خشبي أكلت الكسكسي واللحم بالبرقوق المجفف وعسل النحل. لم أستسغ طعم هذا اللحم بالرغم من أنه أعد كمزيد من الاحتفال بي.

بخجل من وعي التعاليم اقترب طفل صغير من مليكة شقيقة رفيقة الكبرى، وهمس في أذنها. ربتت على شعره وصرفته بالفرنسية.

- ابنك..

- نعم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- ولكنه لا يشبهك.

- يشبه أباه.

كالجرح المتقيح بدأت تنز ألماً:

- لم يره أبوه منذ عام. طلقني غدراً. تزوجنا سبع سنوات. سافرنا إلى فرنسا وإسبانيا وانجلترا واليونان. اشترينا بيتاً أثثناه كبيوت الفرنساوية. والله لا أعرف ماذا حدث له. خاب أمله.مع «الأخوة السنَّية». أطلق لحيته واعتزل في المسجد وأمرني بارتداء الحجاب، ثم أرسلني إلى هنا لزيارة أهلي وبعد يومين وصلتني ورقة الطلاق. حاولت معه، قلت له:

ـ أقبل كل شروطك، لكنه رفض. والله حتى الراديو والتليفزيون أخفاهما لا أعرف أين.

- وأين تعيشين الآن؟

- في بيت صغير في الجزائر العاصمة.

- لكنك لست محجبة الآن.

- نعم، أنا ارتديت الحجاب لأحافظ على بيتي. وخلعته بعد الطلاق، وأنا عندي عمل بالبريد يكفيني ويكفي ابني.

- ماذا يعمل زوجك؟

- مهندس تعلم في فرنسا. كان عاقلاً والله. ربنا يهديه. حتى أهله قاطعهم لأنهم كفرة. استغفر الله العظيم.. الله يهديه..

قطع استرسالها صوت من خارج الحجرة ينادي «أنت يا». قفزت الأم بمجرد سماعها الصوت. قالت رفيقة «إنه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أبي ينادي أمي». واستطردت ضاحكة: «اسم أمي لا ينطق في البيت. نحن نقول لها ماما وأبي يناديها«أنت يا» كل الرجال لا ينطقون بأسماء زوجاتهم. أعتقد أن أمي نسيت اسمها.

دخل الأب مرحباً بابتسامة طيبة. نهرهم بود وحنان لتأخرهم عن تقديم القهوة لي وخرج.

جاءت نفس الصينية عليها إبريق القهوة واللبن وأطباق الحلوى. طقس جزائري آخر أتعرف عليه اليوم بعد طقس الحمام. قهوة الخامسة التي تعد وجبة بين الغذاء والعشاء. مصنوعة بالطريقة الفرنسية، وتشرب مع اللبن وتقدم معها أنواع من الحلوى وشرائح الخبز المحمص والزبد.

عدت إلى بيتي مرهقة، تمددت على سريري الموحش، قرأت دروس الغد ونمت.

رائحة القاهرة أشمها في السطور. حضن القاهرة الدافئ يحتضنني. رسائلهم الأولى لي تصلني. تشعل حنيني وشوقي إليهم وإلى قاهرتي، أحمل الرسائل وأغلق الباب. سطور تحمل شوقاً لي، وسطور تحمل ذكريات حميمة، وسطور تشكو ألماً، وسطور تقوي من عزيمتي. رسائلهم تؤكد غربتي. وتحفر جرحاً في نفسي يعمقه وجودي الوحيد، خلف الجدران وقضبان النافذة.

* * *

كدت أفقد السيطرة على طلابي، وأفقد دربي المرسوم لي كمدرسة. كنت بكلماتي وأفكاري أحاول أن أهدم وأبني في

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نفس الوقت. لم يكن عندي سلاح آخر أواجه به خراب عقولهم. أربكتني المفاجأة.

كان موضوع الدرس «العمل». وتطرقت إلى عمل المرأة فانفجروا:

«عمل المرأة حرام. المرأة خلقت للإنجاب. خروج المرأة للعمل أغضب الله علينا فأحل الخراب والدمار على أمة المسلمين». وعن الضلع الأعوج وعن متعة الرجل قالوا. لغط وأصوات تنعق آتية من أزمنة الهزيمة التي مضت والتي نعيشها. شعرت بالإهانة للوهلة الأولى، فأنا امرأة وعاملة وتركت بلدي وزوجي وجئت بمفردي إلى هنا. كل أركان الإدانة تحيط بسلوكي ووجودي ومهنتي وتدريسي للفلسفة. شعرت أكثر بالإهانة لأنهم مجرد طلبة.

انتبهت لذاتي التي قد تحرف المناقشة إلى وجهة أكثر خطورة. تطلعت عيون تلميذاتي إليّ تستنجد بي، تريد أن تعرف الحقيقة، أن تعرف جدوى وجودهن هنا بين زملائهن يتعلمن معهم حلم المستقبل. تحدثت عن دور المرأة الجزائرية في المجتمع، عن الإيجابيات الحقيقية لانهيارنا، عن الاستعمار والحكام والتبعية. واصلت حتى وصلت إلى المرأة الجزائرية في حرب التحرير وجميلة بوحريد. تحدثت. ماذا تبقى من حديثي: ماذا هدم؟ وماذا بنى؟

الصور بعيدة ولكنها عميقة في نفسي. نسيت بعضها ولكن ما زلت أتذكر زنزانة التعذيب، وجميلة تقاوم. تشد الحلم من بطن الجبل. أجمل أطفال العالم ولدوا على يديها المعلقة في السلاسل. أجمل أطفال العالم رأتهم عيناها اللتين لم تذرفا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الدمع الأليم. من وأد حملها؟ من قتل أطفالها؟ من قتلها؟ كم ركعت قلوبنا لذكر اسمها ونحن صغار. تمنينا في أحلامنا الصغيرة أن نراها، أن نصافحها، أن نكونها. وهم أطفالها الذين حملتهم داخل أحشائها. انطفأ بريق عيونهم بمجرد أن ذكرت اسمها.

حملت حسرتي ومصرع أحلامها وأحلامي، وسرت. حملت ألم الجوع في الجبل. ولزوجة الدم النازف من الجرح الغائر في الصدر. رعب المطاردة. صوت طائرات العدو تبيد المواقع والرفاق. حملت أنين الجسد الذي لم يضعف ولم يهن. حملت سنوات تلتحم بسنوات لم يعرف اليأس طريقاً إلى أيامها. حملت مليون ونصف شهيد وجميلة بوحريد وحسرتي وألقيتها على الأستاذ عبادة مدرس التاريخ.

معه ومعهم عشت الاستعمار الفرنسي، عشت اغتصاب الأرض والعرض، عشت قتل الهوية. فتحت نوافذ جديدة لمعرفة الجزائر. عرفت الاستعمار الناهش في لحم الوطن سمعت الجبل يئن. رأيت دمه ينزف. رأيته يُشيّع بناته للعهر والعار، وان صرخ يصرخ بالفرنسية. وانفجر الجبل ولكن ما كان ينبغي أن يكون لم يكن. ومن كان موكلا إليه القيادة لم يقد. من كان يحلم بالحرية عجز عن تحقيق الحلم، لم يحمل مع الحلم سلاحه. كان عاشقاً وسأل العاشق من سأقتل؟ لن أقتل وقود الحرب، لن أقتل جنوداً ضعفاء سيقوا إلى بلدي بلا إرادة. انتظر العاشق أن تأتي البشارة من هناك، أن تتحرر فرنسا بعشاقها النبلاء فتتحرر الجزائر من مستعمريها. تفجر الجبل. وفرض منطق المستعبد، وخار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منطق العاشق النبيل فلم تحق له القيادة. لم يخن ولكنه أخطأ. حاول تدارك خطئه، التحم بالثورة، نظم صفوفه، أسلم قياده للآخرين. وعندما بدأت البشارات الأولى لانتصار الثورة كان لابد من تحديد من سيحكم. الحسابات واضحة، هو شيوعي. خطر جديد على القوى الجديدة، فكان لابد أن يقتل. لم يقتل برصاص فرنسا. ذبح بسكاكين رفاق الجبل. سلم نفسه مسيحاً. صلب نفسه على صليبه ودق مسامير الصليب بيديه في أعضائه، أمام السلطة والحكم لا وجود للمسيح. أمام السلطة: قاتل وقتيل، وكان هو القتيل. وانتصرت الثورة بدونه. مات ولم يشيعه أحد. ولم يحتضنه سوى الجبل. هل ينطق الجبل يوماً باسمه؟ هل يغفر له الجبل خطأ؟

صعدت الجبل أبحث عن أشلائه، عن عظامه، عن روحه، عما تبقى منه. وردة نبتت بين الصخور، قطعة من ملابسه، رائحته، حفنة تراب شربت دمه. لو وجدته سأمنحه الروح، سيعود عاشقاً لي ولهم ولنا.

ناديته حلماً مستحيلاً، تمنيته أقوى الرجال، استجديت رؤيته في الشوارع، في الأزقة، في الفصول. الوجوه صفراء هزيلة، القلوب مرتعشة غير مطمئنة. العقول خاوية لا تعرفه، لا يعرفه سوى الجبل، والجبل صامت لا يتحدث.

انتزعتني امتحانات الجزء الأول من العام الدراسي من وحدتي. كان علي أن أضع أسئلة خمسة فصول، وأصحح أوراق مائتين وخمسين طالباً، وأرصد درجاتهم، وأشارك في لجان تقييم مستوى وسلوك الطلبة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

استغرقني العمل تماماً، ولم أفق إلا على بداية الإجازة أو عطلة الشتاء كما يسمونها.

* * *

لم أتردد كثيراً في أن أترك خنشلة إلى أي مكان خارجها بعيداً عن المدرسة وبيتي، أن اكتشف العالم خلف الجبل، أن أعب من الحياة التي ذبلت في عروقي.

اتفقت مع رفيقة وخطيبها على الذهاب للجزائر العاصمة لقضاء يومين من العطلة مع شقيقتها. لم أنم ليلة السفر، أعددت حقيبتي عدة مرات. تحركت الطفلة الهوجاء داخلي تدبدب بقدميها الصغيرتين من الفرح، تتعجل الساعات، تلح عليها أن تنقضي، تعد شرائط العيد الملونة، تحتضن الفستان الجديد وتتشرب رائحته.

أتى صباح الخروج من خنشلة المدينة الصغيرة المحاطة بالجبال من جهاتها الأربع، والتي ليس فيها سوى البيوت ومحلات الطعام والحمامات التركية والمقاهي، تغتال أعمار الرجال. يسبون الاشتراكية وأيامها السوداء، والغلاء الذي الـ تهم الأقوات، وسارقي القوت من كبار رجال الحزب، وبين جدران المقاهي يسخن الحديث كلما سرت الخمر في الدماء. تصعد قطراتها إلى الرأس فتبطل العقل وتخرس الحذر من العسس والمخبرين الموجودين بلا شك بينهم.

وبين جدران المقاهي يخرج الألم، السخرية من الألم كلمات وجملاً ونكات تلعن وتسب بالفرنسية والبربرية والعربية. والخمر لا تتوقف. زجاجة نبيذ تعقبها أخرى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تسرى في عقولهم وأعضائهم فلا تقوى يد مرتخية إلا على تحريك ورق اللعب أو قطع الدومينو. وبألسنة ثقيلة تلاك الخيبة من المحيط إلى الخليج، ينكأون جراح الوطن وجراحهم. فلسطين التي ضاعت، ولبنان التي مُزقت، ومصر التي خانت. والعرب الذين لا يستحقون إلا اللعنة. وبنفس الحماس المخمور تلمع الكرة في الرؤوس. هزيمة فريق تيزي وزو ومستوى الفريق القومي وانطلاقه بلّومي وماجر في عالم الكرة. يبدأ حديث آخر ينتهي كما انتهى سابقه، أو تختلط الأحاديث التي تنتهي بتفجير ما تراكم من غضب بين مؤيدي بن بلا ومؤيدي بومدين، مع عبد الناصر وضده، مع فريق ورقلة وفريق تيزي وزو، بالعنف الملائم الذي يبدأ بالسب وينتهي باستخدام المطاوي ومقاعد المقهى.

تراقص قلبي مع دقات رفيقة على الباب.

- هيا السيارة خارج الليسيه.

- أنا انتظركما منذ الأمس.

صعدت السيارة في اتجاه الشمال تاركة قريتنا الصغيرة خلفها. تحولت بكل كياني إلى عينين واسعتين تشاهدان الطريق. طريق جديد اكتشفه من خنشلة إلى الجزائر. المدن الكبيرة أعشقها، تجذبني، أتحول إلى مندوهة وهي نداهتي. الحياة، والذوبان في البشر. أضواء العاصمة تتلألأ في وجداني، فلم أكن أتصور في طفولتي وجود عوالم أخرى غير القاهرة، أو أنني يمكن أن أحيا في مدينة أخرى غير القاهرة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كان المطر قد بدأ يتساقط رذاذاً خفيفاً بمجرد خروجنا من حدود خنشلة. كالندى على وريقات جافة استقبلته عروقي. فتحت زجاج السيارة ومددت يدي أتحسس المطر أملأ مسامي، أروى ظمأ ملأ روحي حتى تشققت ولكنها لم تجب، فما زالت تحس ملمس المطر.

أشعلت سيجارة وتابعت الطريق. الجبال على جانبيه شامخة تحمل أسرار الماضي وتتطلع للآتي. نبتت الزهور بين الصخر. كيف استطاعت أن تشق لها طريقاً وأن تنتزع حياة من بين هذه الصخور القاسية؟ مغطاة قمم الجبال بالثلج الذي بدأ يتساقط نتفاً صغيرة على زجاج السيارة.

غابت الشمس فجأة وأظلم الكون الممتد حولنا، لا يقطع الظلام إلا ضوء سيارة قادمة من الاتجاه المقابل أو مدينة تعلن عن وجودها. الجبل يقترب أكثر من الطريق، يكاد يطبق عليه والانحناءات الحادة والوادي العميق يفتح أبواب الموت لأقل خطأ.

لم نتوقف عن الثرثرة والغناء حتى وقفت السيارة على مشارف مدينة ليستريح سائق السيارة ويحضر لنا رشيد خطيب رفيقة شينا نأكله من الاستراحة. وهي مجرد تعريشة من الخشب تفوح منها رائحة لحم يقلى في زيت ونوع من أنواع الطعام. يقلى أيضاً في الزيت.فالجزائريون لا يستخدمون في طعامهم السمن إلا نادرا. لم نستطع النزول في الاستراحة لشدة الزحام ولقذارة المكان.

واصلنا رحلتنا. وأوغلت الظلمة في الظلمة، وبدأ التعب والوهن يدب فينا. رحلة طويلة من أقصى الشرق إلى أقصى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الشمال، استغرقت ستة عشر ساعة تغلبنا عليها بالغناء أحيانا وبالكلام أحيانا أخرى، حتى بدأت أضواء العاصمة تظهر.

اخترقنا شوارع العاصمة النائمة، وفجأة صرخت رفيقة: نسيت عنوان مليكة.

كانت الثالثة صباحاً، وأجسادنا هدت من مشقة الرحلة، والرغبة في النوم قضت على أية مقاومة داخلنا. النوم الرقيق تحول إلى وحش يدق رؤوسنا وأعضاءنا. لم يكن أمامنا ممكنات لنختار أحدها. نمنا في السيارة حتى الصباح.

* * *

المطر يتساقط، تتسلل قطراته إلى جذوري، يوقظ حياة لم تمت بعد. يداعب جسدي النحيل، يتوحد مع دمي المتدفق، يندفعان من قدمي إلى رأسي يشتعلان ناراً تملأ كيانى.

الثلج المتساقط التصق بوجهي، تنفسته رئتاي، ابتلعته. تحت كفي الصغير، تخلل أصابعي، ولكنني لم أدعه يسقط، اعتصرته بين أصابعي. خدر لذيذ يسرى من يدي إلى عقلي.

الشارع، الكون، الوجود الأبدي الأزلي. قطرات مطر، وثلج أبيض يتساقط على امرأة تسير وحيدة في كون لا متناه تحتمي بالأرض والسماء وببحر أزرق ممتد. سارت آلاف الأميال وآلاف السنوات حتى وجدته. الزلزال المتفجر بين ضلوعي شق البحر. البحر شريان ممتد بين الإنسان والإنسان. أمواجه القادمة من الشرق تمتص قطرات المطر من فوق جلدي.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شعرت برغبة قوية في أن أشرب شاياً وأدخن سيجارة، ولكن لا أعرف أين، بعد أن قررت اكتشاف العاصمة بدون رفيقة ورشيد.

تركت البحر خلفي وسرت.

الجزائر العاصمة مدينة حلزونية، خمسة طوابق أو خمس مدن، تبدأ من أعلى قمة الجبل وتنتهي عند أول قطرة في ماء البحر. وبين الجبل والبحر غابات لا متناهية. أشجار الصنوبر والأرز، ورائحة زهور الفاكهة تعطر الحياة. والزهور البنفسجية تقفز بعناد وسط أشجار الخشب العملاقة تتحدى الضعف بالوجود. ومن رحم الثلج الأبيض على الجبال تولد الحياة ملونة ومعطرة.

وصلت وسط المدينة واخترت مقهى من المقاهي. طلبت شاياً فلم أجد. طلبت قهوة تركية أيضاً لم أجد. فهم يشربون القهوة الفرنسية. لا بأس، أي شيء ساخن في هذا الجو البارد. أمسكت بكوب القهوة بين يدي ارتشفت دفئه.

من خلف زجاج المقهى ضباب كثيف يغطي الأبنية البيضاء، وحركة لا تتوقف رغم البرد والمطر. أقدام مسرعة تحمل أجساداً ورؤوساً ووجوهاً لها ملامح قد تكون جميلة، وقد تكون قبيحة. الوجوه لا تظهر من خلف الزجاج. وأنا لا أعرف منهم أحداً، ولا هم يعرفونني. ارتعدت من الفكرة: فكرة ألا أعرف بشر المكان وألا يعرفونني. مرة أخرى أسير في طرق لا أعرفها. حتى الطرق غريبة عن بعضها. رأيت أحياء من القصدير تطفح بالذباب والأطفال أشباه العرايا ورأيت أحياء مسورة، وخلف كل سور حديقة،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم تسمح أشجارها برؤية ما خلف الحدائق. رأيت سيارات أمام كل حديقة منزل. وكلاباً ضخمة تحرس السيارات والحدائق والمنازل والسكان.

صعدت إلى أعلى قمة في المدينة حيث النصب التذكاري للشهداء، وقررت الرحيل إلى مدينة أخرى.

* * *

طريق جديد أتابعه من خلف زجاج السيارة. طريق جديد اكتشفه من الجزائر العاصمة إلى مدينة «بسكرة» في الجنوب. الضباب يتلاشى كلما توغلت السيارة جنوباً، تتضاءل مقاومته ويذوب في الشمس. الطريق صخري. الجبل والوادي العميق والسماء، ومدينة تسلمنا إلى أخرى. جبل الجنوب أصم صخري، لم يسمح لنبتة واحدة أن تمد جذورها في جلده. ولا حياة إلا للجبل ولصخوره. في لحظات كثيرة كنت أتوقع نهاية رحلتي مع الحياة من كثرة انحناءات الطريق، ومع كل لافتة معلقة تحذر من الخطر «احذروا السرعة، منطقة صخور متحركة، منحنى خطير، خطر ميت».

من خلف زجاج السيارة وفي عمق الوادي رأيت حطام السيارات الساقطة ورأيت جماجم البشر. قد تلحق بهم سيارتي وقد ترقد عظامي رقدتها الأخيرة في هذا الوادي العميق. تشبثت بمكاني وبالحياة التي أبحث عنها في الجبال والشوارع والمدن. على أقدامي أسير، تشدني وأنشدها. لم أتصور للحظة أن أفقدها أو تفقدني.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بدأ الرمل يزحف إلى الطريق. الجبل وبحر من الرمال، وأنا في السيارة أنظر من خلف زجاجها. لو انحرفت السيارة يميناً ابتلعتها الرمال، ولو جنحت يساراً افترسها الجبل. فجأة، في هذا العالم الرملي تفجرت ينابيع المياه، لم أر في مثل زرقتها ولا صفاء لونها. ينابيع الحياة تتفجر، تتحدى الصحراء، تتحدى حبات الموت الأصفر، وصخور الجبل الصماء. لا أعرف هل هو البحر؟ هل هي ينابيع؟ هل هو النيل في قلبي فاض حتى روى الكون كله وانتهى عند صحراء الجزائر؟ تقترب زرقة الماء مني وأهفو إليها. بيني وبينها الرمال، لو أعبرها، لو أقطع الطريق الرملي إليها. وكما ظهر الماء فجأة ظهرت لافتة تحذر من السراب والرمال المتحركة.

إذن هو السراب. لم يفض قلبي بماء النيل، فاض بالسراب، بوهم الحياة التي أبحث عنها، الحياة التي تصورت أني أعيشها. لم أجدها في خِنشلة ولم أجدها في العاصمة ذات الطوابق الخمسة والأبنية البيضاء. لم أجدها في وجوه سكانها ولا في لسانهم الراطن بالفرنسية. لم أجدها في أحيائها القصديرية وعليها الصفيح ولا في شوارعها الثرية النظيفة. لم أجدها في قاهرة المعز لدين الله الفاطمي.

أين أذهب؟ أين أجد نفسي والحياة؟ عم أبحث؟

أوقفت أسئلتي بتحدٍ. هي أيامي وأنا التي أعيشها، وسوف أجدها وأجد نفسي، على الأقل سأرى مدينة جديدة وسأتواصل مع ما تقدمه لي.

دفء شمس بسكرة ودفء قباب بيوتها المبنية بالحجر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أدفأ نفسي. رتبت أشيائي في دولاب غرفتي بالفندق، وأخذت حماماً دافئاً، وتمددت على سريري المطل على حديقة الفندق. تنفست بعمق الهواء القادم من الحديقة حاملاً رائحة الزهور. سرى عطرها في جسدي الممدد على السرير، تخلل مسامي، شعرت بملمسها الناعم يتحسس أجزائي. مررت بأصابعي على جسمي أبحث عن الآخر، أبحث عن نبض الحياة المتدفق تحت جلدي. شممت رائحتي، اقتربت أكثر من نفسي. رائحة الإنسان سرت في كياني كله.

رحت في نوم عميق. أسبح في فضاء الأمواج اللانهائي. حريرها الناعم يلمسني. طيور النورس تحلق حولي تحملني على أجنحتها.

جلست في حديقة الفندق مستمتعة بالشمس وزهور البنفسج ونسمات الصباح. ناديت الجرسون، ودون تفكير طلبت زجاجة بيرة. لا أعرف كيف جرؤت على طلبها. ربما شجعني وجود أجانب بالفندق، وربما استعمالاً لحقي كنزيلة أجنبية. على أي حال لم أطلب البيرة كحق لي في طلب ما أشاء. استندت إلى مبررات أخرى غير كوني إنساناً كامل الأهلية وحر التصرف.

أكسر أسواراً أو حواجز بلا هدف سوى أن أراها تتحطم أمامي. إحساسي بالنشوة تفجر داخلي قبل أن ارتشف قطرة من كأس البيرة الذي يتكثف عليه الزبد. أطبقت كفي عليه وتركت أطراف أصابعي تتحسسه، رفعته إلى شفتي نغماً خفياً سرى في الكون.

دقات قلبي تتصاعد، أنفاسي تتلاحق. التحمنا. سمعت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

دقات قلوبهم. أحصيت أنفاسهم. التحمنا أكثر. اقتربنا من الحقيقة. حاولنا الخلاص، أمسكنا الحقيقة بأيدينا. حاولنا حفر طريق للخلاص. ملأنا جدران الجامعة بمجلات الحائط. وزعنا بيانا على الطلبة. وقفنا نحمى أوراقنا المعلقة على الجدران بأجسادنا. زاد عددنا. تشابكت أيدينا. أغنية المستحيل غنينا.

اقتربت خطواته مني بحذر ولم نكن يوماً حذرين. لم يكن حذرا ويده تشد على يدي. لم يكن حذرا، وحملوه على الأعناق ليغني للوطن.كان وكنا صغاراً، أعوام قليلة مضت، ولكننا كبرنا. لم تعد أشياء كثيرة كما كانت. ولم يبق إلا أن ننشد المستحيل في صدورنا لعله ينفجر بها يوماً.

- أنت هنا بعد كل هذه السنوات، ماذا تفعلين؟

- هشام.

كم غنينا للوطن وكم عشقناه. أين كان الخطأ في الأغنية؟ وأين كنا؟ لا أعرف إلا أننا كنا صادقين.

- منذ متى وأنت في بسكرة؟

- منذ الأمس ولي شهور في خنشلة. كنت سأتصل بك اليوم فقد حصلت على تليفونك من أصدقائنا في مصر.

- وها نحن التقينا صدفة. حدثيني عن مصر. لم أعُد منذ سنوات.

- كيف تحتمل سنوات دون العودة لمصر: ألم تشتق للنيل وللشوارع وللأصدقاء؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ــ اشتقت لهم جميعاً، وحتماً سوف أعود. أشعر أن السنوات لم تغير. أنت... كما أنت ما رأيك لو نذهب إلى بيتي للغذاء؟

- ليس عندي مانع.

اشترى هشام دجاجة وبطاطس وخبزاً ونبيذاً من سوق المدينة وذهبنا إلى بيته. بدأنا في إعداد الطعام وشرب النبيذ. سمعنا فيروز وغنينا معها. تحدثنا عن مصر والأصدقاء. صديق قديم أعرفه ويعرفني يتحدث اللهجة المصرية ويشاركني ذكريات حميمة مضت. وألماً حاضراً لا نعرف متى ينتهي.

* * *

عام جديد مقبل. ساعاته تقترب تنتزع حقها في الوجود. كالساعات المقبلة كنت أنتزع الفرح، كنت أزين الحياة. حياتي وحياتهم. من حق ميلاد العام الجديد ومن حقنا أن نذوب في ساعاته الأولى. كان بيتي الصغير هناك يستقبل سنة جديدة ويستقبل الأصدقاء بي. ترى ماذا يفعلون الآن؟

ارتديت ملابسي وتزينت ونزلت من غرفتي في الفندق في انتظار هشام.

- كل عام وأنت بخير. كيف ستقضي رأس السنة؟

- اعتدت أن أقضي الليلة مع أسرة عراقية وأصدقاءهم، وهم يوجهون لك الدعوة للاحتفال بالعام الجديد معهم.

لا أستطيع أن أرفض الدعوة، ولا أستطيع أن أستقبل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العام الجديد وحيدة. فكرة الوحدة، مجرد الفكرة، ترعبني. تعلقي بالحياة وبأن أذوب فيها يدفعني لقبول دعوة ممن لا أعرفهم. تدفق مجنون يفور في كيانى يلح على كل لحظات عمري كما لو كانت هي اللحظات الأخيرة فيه.

كنت مرتبكة وأنا أتعرف على أصحاب البيت. خلود وزياد مدرسا رسم، وضيوفهما فاضل مدرس وشاعر، سعدي مدرس، وطالب مدرس أيضاً، ومصطفى طبيب. جميعاً هربوا من المقصلة في العراق. هربوا من التعذيب في السجون، من صكوك الاعتراف والتوبة. هربوا من مواجهة عيون الفقراء الذين انتظروا الخبز زاداً وعدوا به. ومن سياط الحلم بالحرية. جميعاً هاربون منذ زمن الحجاج، الذي أصبح زمنه بلا زمن.

شربنا كؤوس النبيذ. غنينا للشيخ إمام. غنينا أغاني عراقية للحب والثورة. رقصنا. كنت سعيدة. ملأني هذا الإحساس المطمئن الذي أحسه وأنا مع الشيوعيين.

* * *

لم تفارقه ابتسامته الخفيفة ولا الحزن العميق في عينيه. انتظر فاضل لحظة من الهدوء ليسألني عن أمل دُنقل.

- مات بعد رحلة مع المرض.

- هل مات مريضاً بالشعر أم بالوطن؟

- أنت ماذا ترى؟

- أصابه الشعر بعشق الوطن فمات.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- رؤية شاعر. لقد كان مصاباً بالسرطان.

ضغط على كأسه وترقرق الدمع في عينيه. خيط بين القلب وبين العين ضغط على قلبي.

- منذ متى وأنت في الجزائر؟

- منذ شهور قليلة وأنت..؟

- تركت العراق منذ ست سنوات.

آه.. يا إلهي.. امتد العالم أمامي، اتسع، عثرت على أجزائه إلا مصر، كانت بعيدة، بعيدة توغل في البعد. نفس اليد الشريرة تكورت. التفت على جسدي تعتصره. ألقتني بعيداً في بلاد لا أعرفها وبين بشر لا أعرفهم وفي طرق ليس منها طريق للعودة.

- ماذا، ست سنوات، كيف؟ وما زلت تحيا؟

- ماذا أفعل؟ لو عدت ينتظرني السجن. والإعدام، أو التوقيع على الانسحاب من الحزب وإدانته.

علت دقات قلبي. ارتعاشات عنيفة هزت كيانى. صرخت في وجهه، في وجوههم، في وجه النفي والمنفى. قلبي وطن لكم جميعاً وأرفضكم، روحي، جسدي أرض خضراء طيبة لكم جميعاً وأرفضكم. أرفض هزيمتكم. أرفض منفاكم. تحسست وجهي وشفتي. ضغطت على أصابعي، فركتها، وضعت يدي على ساقي. ولم يسمع أحد صراخي. السوط يكوي جلدي، الملح يحشو جروحي. فتحت الزنزانة. احتميت بجدرانها. أنشبت أظافري في الأرض. اقترب الرجل مني،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مد يده مزق ثيابي. لم يبق عليّ مايسترني، شدني من شعري. وضع ساقه على بطني. رفعت فخذي لأستر عورتي، داس فخذي بساقه الأخرى. لم أحتمل. بال هزيمتي وهزيمتنا وهزيمتهم في.

- أنتم انتحرتم. لم ينفكم أحد من العراق.

- ماذا تقولين؟ من إذن الذي فعل؟

- لن أقول أخطاؤكم، ولكنها انتهازيتكم. انتهازية حزبكم. منهج ممتد كان لابد أن يؤدى إلى ما وصلتم إليه.

- إنها أخطاء قيادات الحزب.

ارتعش جسدي مرة أخرى. طفلتي المجهضة تنهش لحمي تطالب بالثأر مني ومنهم.

- وأين كنتم حتى تقودكم قيادات الحزب إلى ما وصلتم إليه؟

برق عينيه يستجدي سكوتي. خيط الدم الممتد من قلبه يئن في صوته المسكوب على حلم أمسكته بيدي وضاع. ضيعته وضيعوه وأضعناه.

أوصلني هشام إلى محطة الأتوبيس الذي سينقلني إلى خنشلة. عاودني خوفي وأنا أصعد السيارة إلى مقعدي. الخوف المهين من كل شيء محيط بي. قطعت الرحلة إلى خنشلة ولم يغادرني خوفي لحظة واحدة.

مرة أخرى أُنتزع من ألفة من عرفت لأقبع وحيدة خائفة في حجرتي. في الليلة الأولى لم أستطع إطفاء نور الحجرة من شدة الخوف وكأن وحوش العالم تترصدني. وبدأ الجزء

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الثاني من العام الدراسي كما بدأ الأول. في السابعة أستيقظ. أدخل الفصل الأول في الثامنة. أنتقل بين الفصول وأقول نفس الكلام.

أغلق باب بيتي على نفسي في الخامسة. أخرج لشراء طعام أحيانا وتزورني رفيقة وفريدة قليلاً. وأزور نادية كلما تمكنت. وأكتب الرسائل إلى مصر، وانتظر رسائل من مصر لي. وأقرأ الأدب الجزائري.

* * *

حلقي يجف.. ألسنة اللهب تصعد من ساقي زاحفة على بطني وصدري ورأسي. العرق يتصبب من كل جسدي المرتعش. رأسي ينفجر من الألم، شراييني تتسع. أشعر بدفق الدم فيها كالمطارق في رأسي. حاولت أن أتحرك، لم أستطع. ساقاي المرتعشتان لا تقويان على حملي. الجدران الأربعة تهتز. السقف يطبق على الأرض. أنيني لا أسمعه. شفتاي ولساني جفا من العطش. هل الموت يقتحم وحدتي؟

لا أعرف كيف وصلت إلى بيت نادية.

ارتميت في حضنها وأنا انتفض وأبكي. صدرها الطيب احتضن ألمي. لا أعرف منذ متى وأنا في المستشفى ولا كيف وصلت. أدركت ما حدث عندما فتحت عيني ووجدت نادية وفلاديمير بجواري على السرير.

جاءت الممرضة لقياس درجة حرارتي. امرأة بدينة جلدها أحمر وشعرها مصبوغ بالحناء. لم تتحدث. تحركت حركة آلية منتظمة وخرجت.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سألت نادية «هل هذه ممرضة جزائرية»...

- لا.. ألمانية هربت من النازي، وجاءت إلى هنا، صعدت مع الثوار إلى الجبل ضمن عشرات من الجنسيات الأخرى، وبعد انتصار الثورة أسلمت وتزوجت جزائرياً.

قررت أن أقتحمها عندما جاءت لقياس درجة حرارتي وإعطائي حقنة.

سألتها بالانجليزية عن اسمها.. ردت بالعربية.

- اسمي عائشة.

- ولكنني عرفت أنك ألمانية.

- غيرت اسمي بعد أن أسلمت..

- منذ متى وأنت هنا؟

- عمر طويل لا أتذكره؟

- هل تركت ألمانيا أثناء الحرب أم بعدها..؟

- لا أتذكر.. تركت ألمانيا عندما كان يجب أن أتركها..؟

- لماذا لم تعودي بعد انتهاء الحرب؟

- لم أعُد..

- أنت من ألمانيا الشرقية أم الغربية؟

- من ألمانيا!!

- اشتركت في حرب تحرير الجزائر، أليس كذلك؟

- لم أكن الأجنبية الوحيدة. أجانب كثيرون حاربوا مع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الجزائريين، وأنا كنت أطبخ للرجال.

- ألم تحملي السلاح؟.

لم تجب. ارتعشت شفتاها وهي تحاول إحكام إطباقهما. مدت يدها إلى ذراعي لتعطيني الحقنة. بسطت كفي وودت لو فردت يدها واحتوتني بين ذراعيها. قد أشم رائحة ما لم تقله. صرخت من الألم عندما غرست الإبرة في لحمي. لم تهتز لألمي. بنفس الآلية وضعت القطنة المبلولة بالمطهر فوق موضع الإبرة، وقبل أن تخرج قالت «إذا أردت شيئاً أنا موجودة».

تحملني في كل مرة رسائلهم إلى هناك. إلى أفراحهم وأحزانهم، وذكريات محفورة في عظام أعمارنا، هي ما تبقى لنا وما نبقى عليه. جذور الذكريات ممتدة حيث نقف، حيث موضع أقدامنا، وكل ما حولنا خواء. منها نعيش وعليها نواصل الحياة. «كنا» تسبق كلامنا عن أي شيء. أعمارنا صغيرة ولكن «كنا» وما يليها أضافت العجز لسنوات الشباب. توقفنا أو أوقفنا عند حدود ما كان. وأنا هنا ألملم ما كان داخلي. أستمد منه القوة. فالمقبل مجهول ولا أنا ولا نحن جزء منه. هكذا أردنا أو أجبرنا. النتيجة واحدة. فراغ وخواء. وإذا علا صوتٌ فبالنحيب وكأننا تحولنا إلى نداءات على ضفاف النيل.

* * *

عدت أجر قدمي وأتحامل على ما تبقى لي من قوة حتى أصل إلى بيتي بعد يوم عمل مجهد. كنت أشعر أن بيني

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وبين بيتي مسافة لا أقدر على قطعها رغم أني لم أخرج من سور المدرسة. وجدت رفيقة في انتظاري أمام باب البيت.

- أهلا يا رفيقة منتظرة منذ متى؟

- حالاً وصلت. شعرت بالبرد فقلت لن يدفأني إلا شاي المصرية.

- أهلا بك، حقيقة سعدت لأنك نشدت الدفء فيما حملته معي من مصر.

وضعت إبريق الشاي على البوتاجاز ووضعت قطع الجاتوه في طبق. وأدارت رفيقة جهاز الكاسيت ووضعت فيه شريط منوعات لبنانية راقصة. تمايلتُ معها أنفض أحمالي عني.

- عندي لك خبر لا أعرف كيف سيكون وقعه عليك..

قالت رفيقة وهي تأخذ كوب الشاي من يدي.

- ماذا، قولي؟

- أيا كان ما سأقوله أرجو ألا يؤثر على صداقتنا.

- لا أتصور أن خبراً يمكن أن يؤثر على علاقتنا. وكل شيء قابل للمناقشة هيا تحدثني..

اقتربت منها أكثر وتربعت فوق السرير وأخذت كوب الشاي بين كفي..

- أنا حامل.

- ماذا؟ حامل؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

شهقت وأنا أردد الخبر. لم أستنكر ولكنني لم أكن أتوقعه.

- كيف حدث هذا وأنت لا تلتقين بخطيبك إلا خلسة، حتى بيتكم غير مسموح له بزيارتك فيه.

- هل تعتبرينني مخطئة؟

- إطلاقاً لست مخطئة، ولكن كيف حدث هذا؟

- نحن نلتقي في بيت أحد الأصدقاء. وهذه المرة الثالثة التي أحمل فيها. أجهضت في المرتين السابقتين وأخشى من الإجهاض في الثالثة، كما أنه سيكلفني السفر إلى تونس لأنه هنا ممنوع.

- كيف ستواجهين الموقف؟

- سنعجل بالزواج، وعندما ألد سنقول ابن سبعة أشهر.

أخيراً اكتشفت الحكمة من الولادة في الشهر السابع..

- رفيقة، هل ممارسة الجنس قبل الزواج أو في العلاقات الخاصة أمر عادي؟

- بشرط ألا يعرف أحد، وأن يتم مع شخص موثوق فيه، لا يشهر ولا يتخلى عن صديقته، إذا حملت.

- أنا لست ضد حدوثه، ولكن لماذا الكتمان إذا كان الأمر قائماً بشكل أو بآخر.

- نحن عرب ومسلمون.

- وفرنسيون فيما يُمتع..

ضحكت ولم تعلق، وتشاغلت بإشعال سيجارة لي وأخرى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لها.

* * *

دخلت أول الفصول، لم أجد سوى عشرة طلاب.

- أين باقي زملائكم.

لم يرد أحد، فقد سمعت نحيب الطالبات.

- ماذا حدث؟ تكلموا..

بوجه جامد قال أحد الطلبة «كنا في المستشفى».

- لماذا؟

- للتبرع بالدم لِبوشوارب.

- هل أصيب في حادث؟

- لا.. تشاجر أمس مع علاوة لَشْخب.

اقترب بوشوارب مني في حصة الأمس. كانت تفوح من فمه رائحة الخمر.

ابتعدت، فاقترب أكثر. لم يكن قادراً على الاحتفاظ بتوازنه. كان يلوك الكلام بصعوبة قال لي «كيف حالك يا أستاذة في بلادنا، إذا كنت في حاجة لأي شيء أنا أخوك لا تعولي هما».

فزعت رغم كلامه الطيب. قلت له «أشكرك أنا هنا بين أهلي وإخوتي».

كنت أتلمس ما لم يفسده الخمر. تظاهرت بأني أبعد ذبابة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عن وجهي بيدي التي تحركت لتربت على كتفه دون انتباه مني، ولكنني تنبهت بسرعة.

في مقهى القرية واصل سكره هو وزميله علاوة. في المقهى كلهم يتحدثون، لا أحد يسمع إلا نفسه. يخرج من القمقم حبيس الدين والناس والعسس، في المقهى وعلى مقعد صغير في آخر أركانها ترقص الفراشات، تحوم حول الوجوه. ملمسها الناعم يتحسس الأجساد المكدودة. يتوحدون حيث لا توحد، ويتعددون حيث لا وجود لأحد منهم. في آخر الليل خرجا معاً من المقهى. لسعات البرد تلفح وجهيهما، يلتصقان أكثر بثيابهما. يتمتم لشخب باسم، يلعن ربه، ويلعن أمه ويلعن سخونة جسده التي لن يطفئها إلا جسد صاحبة الاسم. «زبيدة». ترديد الاسم نبه بوشوارب لصاحبته، فهي ابنة عمه. لم يستطع تحمل سماع أحلام صديقه التي عرّت ابنة عم، وتحسست جسدها الأبيض الطري. صفعه على وجهه. أخرج كل منهما مطواته. بوشوارب أصيب بجرح مزق الكلى، ولشخب أصيب بجرح في ساقه لم تتحمله، ويقول الأطباء أنها لابد أن تبتر.

لم أستطع تحمّل ما حدث. أعرف أنه يتكرر في كل بقاع الأرض. ولكنني كنت أعرفه مكتوباً على ورق الجرائد، لم أواجهه، بحثت عن جدوى وجودي بين طلابي، عن جدوى ما أدرس، عن جدوى ما أحاول تقديمه لهم فلم أجد. اعتذرت لبقية الفصول، وعدت إلى بيتي. دفنت رأسي في الوسادة، وكأني أدفن الرعب الذي يدهمني عندما أواجه بالتخلف والانهيار. قد أواجه أشكال التخلف في كلمة أو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

موقف، لكنني لم أواجه التخلف معمداً بالدم.

لأيام طويلة لا يفارقني الصداع، ولا الإحساس بالضعف، ألم زاحف من قدمي إلى كل أجزاء جسدي، وأصبح الوهن وفتور الهمة والرغبة الدائمة في النوم هي الحالات الملازمة لي.

أصبحت عصبية بشكل لا يحتمل. لا أقبل أقل حركة في الفصل، حدتي في التعامل مع طلابي كانت تقلقني لأني أحبهم، فهم جزء من عمري وأنا أحب عمري. جزء من حلم أتمنى تحقيقه، وأنا أعشق أحلامي. وعمري وأحلامي دب فيها الوهن. ورفضي لوهني عصبي وحاد.

* * *

وجدت اسمي مسطوراً على مظروف رسالة لم تكن قادمة من القاهرة، لم أتوقع أن تكون من فاضل. فأنا لم أترك عنواني ولم نتفق على المراسلة.

«ما إن وصلت إلى تلمسان حتى فكرت في الكتابة إليك، مستعيداً في ذهني تلك الأوقات الجميلة التي قضيناها في بسكرة. تلك الأوقات المليئة بالصدق والفرح والحزن النبيل.. إنها تبدو لي الآن كرؤيا موغلة في العمق والبعد. سيكون مؤلماً أن لا نلتقي ثانية، فليس هناك شيء يؤلمني أشد من فقدان إنسان نبيل ورائع في هذا الزمن الشحيح بكل ما هو رائع».

أعددت فنجاناً من القهوة وأشعلت سيجارة وتمددت على السرير. أخذت نفساً من السيجارة ورشفة من فنجان القهوة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وقرأت الرسالة أكثر من مرة. تركتها لأبحث عما تركته داخلي. لم أبحث كثيراً فقد قفزت من فوق سريري وذهبت إلى نادية.

- أرسل إلى أحد العراقيين الذين التقيت بهم في بسكرة رسالة اليوم. هل تذكرين، حدثتك عنهم.

- نعم أذكر أنك التقيت ببعض العراقيين.

- رسالة رقيقة جداً.

- كتبت الرد؟

- لم أكتب بعد. سوف أكتب عندما أعود إلى بيتي. قال في رسالته إني رائعة.

- هو لم يبالغ أو يجامل، أنت فعلا رائعة.

- لم نلتق سوى مرة واحدة ولعدة ساعات ليلة رأس السنة.

تركتني وصعدت للطابق الثاني لتحضر الحلوى لنأكلها مع الشاي.

- دعاني لزيارته في عطلة الربيع.

- من؟

- الصديق العراقي.

- شيء لطيف منه..

لمعت عيناها وابتسمت وهي تقول جملتها الأخيرة. لا أعرف لماذا ارتبكت..

- ترك العراق منذ ست سنوات. إما أن يوقع على

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الانسحاب من الحزب أو يعدم.

- أعرف أنهم تركوا العراق، وإما أن يوقعوا على الانسحاب من الحزب أو يعدموا.

- شيء قاس أن يجبروا على ترك وطنهم.

- نادية، لماذا يساعد الاتحاد السوفيتي نظام البعث وهو يقتل الشيوعيين العراقيين؟

كالطفل الذي يسأل لماذا أصاب الله أمي بالمرض، أخجلني سؤالي الذي لم أفكر فيه قبل أن أنطق به، فأنا أعرف الإجابة. طلبت فنجاناً من القهوة، ويبدو أنها شعرت بارتباكي فلم تجب.

خرجنا في مركب نسائي من منزل أهل رفيقة إلى الحمام نحمل الأواني النحاسية. جرادل وأطباق كبيرة وأكواب. فالليلة فرح رفيقة، وقد أخرجت أمها أواني الحمام التي لم تخرج إلا مرتين: مرة لأول حمام بعد عرسها، ومرة في عرس مليكة. وها هي تخرج للمرة الثالثة. استقبلتنا صاحبة الحمام والنساء شبه العاريات بالزغاريد. فرحة العرس أطلقت غناء من حناجرهم، والدق على الأواني بأيديهن. انطلق النغم الأفريقي دماً فائراً من أرجلهن فتحركت أفخاذهن وصدورهن وبطونهن في رقص ساخن ينساب عرقاً على جلودهن. وغنج ذكرى الليلة الأولى للعرس يتداعى حكايات على أسنتهن، فما قبلها من غنج لا يذكر كأنه لم يحدث، فليلة الفرح هي الليلة الشرعية المسجلة في دفاتر البلدية والتي تحمل بعدها المرأة لقب عائلة الزوج،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يسجل على دفاتر مكتوبة ومحفوظة.

بعد الحمام انتقل مركبنا إلى مصففة الشعر. بعد تصفيف شعرنا جابت بنا السيارات المدينة قبل أن تنقلنا إلى بيت أهل رفيقة.

امتدت صينيات عليها أطباق الحلوى. وأباريق القهوة واللبن. جلسنا على قطع الإسفنج الملقاة على الأرض في استقبال النساء والفتيات اللاتي أتين تباعاً، بزيهن التقليدي للعرس. فستان حرير مشرق الألوان مطرز بخيوط مذهبة وبدون أكمام، ويحيط الوسط حزام من الذهب أو الفضة.

دقت الطبول وعلت الحناجر بالغناء وتصاعدت الزغاريد، أفريقيا موسيقى تسري في دمائهم البربرية، تحرك الأقدام، تهز الأرداف والبطن والصدر والخصر المائل. تفجر قوة ليست كامنة ولم تكن يوماً كامنة. فقط تتحرك الموسيقى تحت الجلد، تتفصد عرقاً ساخناً. تقترب الواحدة من الأخرى، تتلامس الأكتاف وتتوحد الأنفاس اللاهثة. نار أفريقيا المشتعلة في دقات الطبول تعلو وتصرح فتجذبني إحداهن لأدور في حلقة النار واحدة ممن يتعبدن داخلها. فالنار داخلنا جميعاً جذور ممتدة في عمق أدغال النفس الأفريقية.

سألت رفيقة «أين زوجك، لقد تأخر»؟

- لن يحضر الآن..

- متى سيحضر، لنا ساعات ننتظره؟

- سوف يحضر آخر الليل ليأخذني إلى بيت أهله.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- ماذا؟

- كما ترين الفرح للنساء في بيت العروس وللرجال في بيت العريس. ولن يدخل بيتنا إلا ليأخذني. الآن أصدقاؤه يحتفلون به كما تحتفلن بي.

- الله يلعنكم، كل هذه المساحيق والزينة والملابس والرقص ولن يرانا رجل.

جاء رشيد في ساعة متأخرة، وأخذتنا السيارات إلى بيت أهله.فالمفروض وفقاً للتقاليد أن يقضي عندهم أسبوعين ثم ينتقل إلى بيته. تجمّعنا في صالة البيت بعد أن فقدنا أثر العروسين، وخرجت أثرهما دماء حمراء فوق قطعة شاش أبيض. علت الزغاريد، واحتضن الرجال أباها وإخوتها. واحتضنت النساء أمها.

عدنا إلى السيارات وأنا أتساءل: من أين أتت رفيقة بالدم الذي لطخ قطعة القماش البيضاء؟

* * *

تعرفت على صبية تجاوزت العشرين من عمرها بقليل في فرح رفيقة. فوجئت بها تطرق بابي. تهللت لرؤيتها فأحمر وجهها خجلا.

شدني الصفاء في عينيها يحمل حلماً لا يحتمل إلا التحقيق.

- نسيتني؟ أنا شهيدة.

لم أتركها تواصل.. قلت لها:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- مرحبا بك، لم أنسك، وتوقعت زيارتك لي؟ ولكنها تأخرت أليس كذلك؟

- كنت أستخرج شهادة الليسانس وأحضر أوراق تعييني لأقدمها للمدرسة فسوف أدرس معكم الفرنسية.

- مبروك، شيء رائع أن تكوني معي. حسناً سأضمن أن أجد من يشاركني كوب الشاي. وعلى ذكر الشاي والقهوة؟ ماذا تشربين؟.

- لأجرب الشاي المصري..

تركتها لأعد الشاي وبعد أن انتهيت منه عدت لها. أخرجت علبة سجائري وأشعلت سيجارة.

- شهيدة، هل يضايقك أن أدخن؟

- إطلاقاً هذا أمرك الخاص وأنت حرة.

- ولكنني شعرت باستياء البائع وأنا أشتري منه السجائر، حتى أني أصبحت أعتمد على فلاديمير في شرائها لي. أيضاً منذ أيام زارتني إحدى تلميذاتي وبمجرد أن أخرجت سجائري شهقت واستنكرت بشدة.

- لا تهتمي، فالرجال هنا لا يستوعبون أن تدخن المرأة ويستوعبون أن تأكل الشمّة وهي أيضاً شكل من أشكال الإدمان. أما تلميذتك فهي متأثرة بالسائد من التفكير، و أحكامها ستختلف بمجرد ذهابها للجامعة، فنحن جميعاً ندخن في الجامعة، ولو على سبيل التسلية والتقليد.

- إذاً يمكنك أن تأخذي سيجارة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- لا بأس بشرط أن توفر لي قطعة لبان قبل أن أعود للمنزل.

- خريجة أي جامعة يا شهيدة؟

- جامعة قسنطينة.

- أين كنت تقيمين؟

- في الحي الجامعي.

- ما رأيك في كوب شاي آخر في هذا الجو البارد.

لا أعرف متى سيذوب الثلج الذي يغطي قمم الجبال وإن كنت أحب هذا المنظر.

- في قسنطينة أغلق الجليد الطرق أول أمس حتى جاءت كاسحات الجليد وأزاحته.

- هيا معي إلى المطبخ لنعد الشاي.

- حياتك قريبة من حياتنا في الحي الجامعي، نفس البساطة. منذ سنوات كان الحي الجامعي مشتركاً. بنين وبنات. وكان أجمل بكثير. لكن الإخوان السنَّية هاجموا هذا الاختلاط حتى فصلوا البنين وبنوا لهم حيّاً آخر. هل تأتين معي مرة إلى قسنطينة؟..

- نعم، أتمنى فأنا أريد أن أتعرف على مدن الجزائر.

وجدت طفلة صغيرة تخبط على باب بيتي بإصرار. بمجرد أن رأتني قالت بسرعة وكأنها تستنجد بي:

- يا مصرية أختي شهيدة تحتاجك هيا معي للبيت.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تبدد حلمي بالنوم لساعة أو ساعتين، فليس عندي سوى نصف يوم عمل أنتظره من الأسبوع للأسبوع لأنعم بنوم الظهيرة الذي حرمت منه.

- انتظري لحظة أضع كتبي وأوراقي وآتي معك.

اختفيت من الطفلة في الحمام لأدخن سيجارة. دخنتها بسرعة شديدة حتى أصابتني بالدوار.

استقبلتني أم شهيدة بترحاب شديد متخلصة من أيدي أطفالها العالقة بثوبها. هرولت للدخول تعلن عن قدومي لزوجها الذي أتى مرحبا بالقادمة من بلاد الأزهر الشريف. أدخلاني حجرة شهيدة. وجدتها ممددة على السرير تئن.

- ماذا بك؟ حرارتك مرتفعة؟

- أسناني تؤلمني، لم أنم ليلة الأمس.

- ولم تذهبي للطبيب حتى الآن؟

- هذا ما استدعيتك من أجله. لا يوجد طبيب أسنان بخنشلة فقد أغلقت عيادته ونقلت إلى متّوسة.

- وأين متّوسة هذه؟

تبعد خمسة عشر كيلومتراً من هنا، وأردت أن تأتي معي لأن الطبيب مصري، حتى يهتم بي أكثر.

- هيا بنا.

أخذنا سيارة من أمام مبنى البلدية، كان الجو مشمساً مع تساقط رذاذ خفيف من المطر، ولسعة هادئة لهواء نقي محمل برائحة الزهور. انعكست الشمس على سنابل القمح

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فتوهجت تظللها سماء زرقاء، ترويه قطرات ندية من المطر. وهي تضع يدها على فمها قالت شهيدة:

- متّوسة إحدى قرى الثورة الزراعية. بنينا ألف قرية اشتراكية بمساعدة خبراء من الدول الاشتراكية. عمتي تعيش هناك، سوف نذهب لزيارتها.

توقفت السيارة عند مدخل القرية. سرنا عدة أمتار حتى وصلنا للوحدة الصحية. مررنا على غرف مغلقة، علقت على أبوابها لوحات معدنية كتب على كل لوحة تخصص الطبيب، حتى وصلنا إلى حجرة على بابها لوحة كتب عليها «حكيم الأسنان».

سجل العامل الجالس بجوار الباب اسم شهيدة في دفتر أمامه ودعانا للدخول. بلهجة جزائرية ركيكة.. استقبلنا الطبيب مرحبا.. رددت تحيته باللهجة المصرية فلم يلتفت لكوني مصرية. قالت له شهيدة «الأستاذة مصرية».

- مصرية.. مستحيل، أهلا بك.

- أهلا بك. تصورت، أنك ستعرفني من لهجتنا.

- هنا يتحدثون معي باللهجة المصرية لأنها سهلة، والجزائريون يحبونها. وغزو التلفزيون المصري بنجومه له سحر يدعو لتقليد اللهجة المصرية. كشف على أسنان شهيدة وكتب لها علاجاً من صيدلية الوحدة الصحية. تركتنا وذهبت لتصرفه.

- كيف تكونين هنا ولا نعرف لنقوم بالواجب.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- شكراً لك..

- يوجد معك مصريون بالمدرسة هل تعرفت عليهم؟

- التقيت بواحد منهم يوم وصلت، ولم يكن لقاء طيباً. لذا لم أحاول التعرف على أحد سوى الأستاذ رفعت. وتقريباً لا أراه إلا في حجرة المدرسين.

- سوف نذهب لبيتي لأعرفك بزوجتي، سيسعدها أن تلتقي بك.

- شكراً، لا أريد أن أزعجكم.

- عيب، لا تقولي هذا، سوف أستعد حتى تعود صديقتك.

البيوت في القرية كلها من طابق واحد ومحاطة بسور خلفه حديقة، وجميعها لا تتجاوز العشرين بيتاً. علقت فوق أسطحها هوائيات التلفزيون.

اندهشت بدرجة شديدة حتى كدت أصفق.. فقد رأيت لافته كبيرة كتب عليها بالعربية:

«مكتبة ومسرح قرية متوسة»

قلت لهما «متى تفتح المكتبة، أريد أن أدخلها».

ضحكا معاً ولم يردا..

- فعلا أريد أن أدخل المكتبة وأن التقى بالمسئول عن المسرح.

واصلا ضحكهما وقال الدكتور عادل:

- يا أستاذة هذا المبنى مغلق، لا مكتبة ولا مسرح، كل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المسألة أن خبراء الدول الاشتراكية التي شاركت في إنشاء القرى الاشتراكية هنا نقلوا ما عندهم. طراز البيوت والطرق المؤدية لها والحدائق والمسرح والحضانة وهي أيضاً مغلقة، فالنساء هنا لسن عاملات ولسن بحاجة إليها.

بجوار المكتبة والمسرح والحضانة وضعت لافتة على مبنى رابع كتب عليها «الحمام».

قالت شهيرة:

- هذا وحده هو المبنى المستخدم فهو ما يحتاجونه هنا وما يخصهم.

وصلنا البيت، فتح بوابته، دخلنا حديقة صغيرة بها تكعيبة عنب وحوض نعناع. نادى عادل زوجته.

- ايزيس..

رددت الاسم خلفه بيني وبين نفسي.. يسكن الاسم عميقاً في نفسي. ترديده حرك الساكن. وانتظرت أن تقبل شابة صغيرة سمراء ممتلئة، شعرها أسود يصل إلى ما قبل خصرها بقليل، مبتسمة ومرحبة. بصوت عال قدمنا لها. أخذتني بين ذراعيها بمجرد أن قال إنني مصرية، رفعتني ودارت بي.

- أخيراً وجدت مصرية.

- يبدو أننا نبحث عن مصريين في الجزائر.

- الملل يقتلني. لا أرى أحداً إلا جارتي، ولا تتحدث إلا من خلف السور. تعبت من البقاء طول اليوم انتظر عودة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عادل من عمله.. انتظرت أن أعين مدرسة للغة الإنجليزية هنا في المدرسة الإعدادية، ولكن لم أوفق.

رفضت إيزيس وعادل أن نغادر بيتهما قبل الغذاء، وأكدا على أن أزورهما، ودعوتهما بدورهما لزيارتي.

أشجار الفاكهة تتسلق أسوار حدائق المنازل، وأطفال صغار يلعبون أمام بوابات الحدائق المغلقة، أجسادهم عارية إلا من جلاليب رقيقة وأفخاذهم ومؤخراتهم زرقاء من البرد، وشعورهم ملبدة من كثرة ما علق بها من أتربة، وأنوفهم يتدلى منها مخاط أزرق وأبيض، يرفعون أيديهم الصغيرة يمسحونه بأصابع ملئت أظافرها بالأوساخ.

رذاذ المطر أتاح وجود الطين لصنع اللعب التي يتخاطفونها كأنها الهدايا، طفل يجلس بجوار حائط يتبول، يقذفه آخر بحجر، يصرخ، يحتبس بوله، يتأوه ويتحامل على نفسه حتى ينتهي.

وصلنا منزل عمة شهيدة. امرأة عجفاء منكمشة على نفسها من البرد. سلمت على شهيدة وعلىّ ودعتنا للدخول. دخلنا حجرة بها نول كانت المرأة تغزل عليه صوف الأغنام. نادت المرأة على ابنتها لتشعل المدفأة، وشكت من البرد الذي فتت عظامها وأحنى ظهرها. رحبت بنا الابنة ونظرت في خزينة وقود المدفأة وهمست للأم في أذنها بكلام قالت بعده «الله غالب يا بنتي». بخجل قالت الابنة:

- مرحبا بكما..

وظلت واقفة تفرك أصابعها. شعرت أن الدم سيتفجر من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يدها من شدة الضغط بيد على الأخرى.

قامت شهيدة مستأذنة. لمحت شهيدة تطبق بيدها على ورقة مالية وتضعها في يد عمتها. كانت كلماتها التي ودعتنا بها «سامحوني ما شربتم القهوة».

- شهيدة، أين الأرض؟

- أيّة أرض؟

- الأرض الزراعية، أليست هذه قرية؟

- بعيدة نسبياً عن البيوت.

- من يزرعها؟

- يزرعها الفلاحون، ولكنهم لم يحصدوا ما زرعوا، فقد فشل التسيير الذاتي والتعاونيات لأسباب كثيرة، أعتقد أن الحزب وراءها، وسوف ننتزع الأرض من الفلاحين وتباع لمن يستطيع الدفع.

- سمعنا هذا.

- من أين تعيش عمتك؟

- عندها أرض كان زوجها يزرعها ومات منذ سنوات ولم تعد قادرة هي على رعايتها وسوف تؤخذ منها. تصرف لها منحة شهرية لا تكفي عشرة أيام. هل تعرفين أنه لم يكن بالبيت بن ليصنعوا لنا القهوة.

سكتتْ شهيدة وسكتُ.. ولافتة ضخمة خلف ظهورنا كتب عليها «قرية متّوسة الاشتراكية».

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جاء أحد العمال بالمدرسة ينادي لأتلقى مكالمة تليفونية، لم أكن أتوقع أن تكون من فاضل..

- كيف حالك؟

- بخير.. كيف عرفت رقم تليفون المدرسة؟

- من الاستعلامات..

- أشكرك على اهتمامك..

- شوقي للعراق دفعني للاتصال بك وللبحث عنك..

- لم أرد. أغمضت عيني حتى لا أواجه تجربة قد تدفعني إلى غربة لا أول لها ولا آخر. صدى صوته يردد اسمي، يبحث عني ليجد وطنه. من يبحث عن الآخر، من يبحث عن الوطن. بمن أحتمي وبمن يحتمي؟ بفهد المعلق في ساحة بغداد، بالنيل الزاحف صوب الشمال كالأفعى، بالجدران الصماء ما حفظت أسماء، بالأسماء فوق الأسماء محفورة بالأظافر، بالأظافر ما نشبت إلا في صدورنا، بالعواء في صحراء لم تنبت نجمة.

تسللت شمس الجمعة إلى حجرتي ناعمة. امتد الشعاع إلى سريري.رفعت الغطاء عن جسدي، تمدد بجواري. تخلل شعري. خفيفاً لمس وجهي. رفعت جزءاً من ملابسي. ظل أحمر انعكس على الجزء العاري من جسدي، أزحت ملابسي عن الجزء الآخر من جسدي، تمدد الشعاع عليه اخترق الجزء الذي لم أعره، دافئة تنساب خيوط العرق بين خصلات شعري، وعلى وجهي، وبين ثديي. جففت عرقي بيدي. أشعلت سيجارة، دخنتها وذهبت للحمام التركي.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ما زال الثلج يغطي الجبل. تذيبه الشمس. ماء يحفر قنوات في الصخر تسيل إلى الأرض ترويها وتنبت أشجاراً خضراء.

ارتديت فستاناً أزرق، على صدره وردة حمراء. مشطت شعري ووضعت بعض المساحيق على وجهي. أخذت معطفي وأغلقت باب البيت وتوجهت إلى بيت شهيدة. فرحت بزيارتي، صديقتي الطفلة شهيدة.

- كنت أفكر في زيارتك، ولكن أبي شغلني بكتابة رسالة جديدة للحزب يطالبه فيها بتسوية حالته.

- لم أفهم؟

- شارك أبي في حرب التحرير، وصعد إلى الجبل حاملاً سلاحه، وبعد الاستقلال أعلن الحزب أن كل من قضى ٩٣ يوماً فأكثر في الجبل فهو من المجاهدين، وعليه أن يقدم ما يثبت ذلك حتى يحصل على سكن وراتب شهري وسفريات له وأولاده مجانية، وقد يزوجونه من أخرى. ما رأيك علنا نرتاح.

- وماذا فعل؟ أكملي وتوقفي عن أمنيتك الدائمة بالتخلص من أبيكِ أيتها الشريرة.

- بعد أن نزل من الجبل عاد لوظيفته في البلدية، «ساعي»، كما كان، وبقي في منزلنا هذا، ولم يخرج من خنشلة إلى قسنطينة أو العاصمة سوى مرات معدودة. وراتبه يكفينا بالكاد لولا المنح الدراسية التي تعطيها لنا الحكومة لما تمكنا من مواصلة تعليمنا.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- ولماذا لم يقدم ما يثبت أنه حارب حتى يغنم كما غنم الآخرون؟

- قدم الكثير ولم يلتفت له أحد. يبدو أنهم وزعوا الغنائم قبل نزولهم من الجبل. فنسوا البسطاء أمثال أبي، رغم أنه قضى سنوات يحارب الفرنسيين.

- هيا يا مهبولة لنذهب إلى بيتك وكفانا من أبي ومن رسائله.

استأذنّا من أبيها الذي استوقفنا بعض الوقت لنطالع مذكرته الجديدة.

* * *

وضعت شريطاً لفيروز في الكاسيت، وجلست على سريري تحت أغطيتي. مددت يدي لمرآة كانت فوق كرسي بجوار السرير، نظرت إلى وجهي، تأملت ملامحي الدقيقة وشعري البني المنساب ناعماً رقيقاً حول وجهي. خجلت من إعجابي بنفسي. تردد صوتي داخلي «كم أنا جميلة». قلتها لأني أحتاج لسماعها، لمن يقول «كم أنت جميلة». تحسست عنقي وتركت يدي خلف شعري تتحسسه وتعبث بخصلاته.رفعت جانبا منه بيدي. سألت نفسي هل هكذا أجمل أم وهو مرفوع تماماً أكثر جمالاً؟ لا يناسبني أن أتركه منساباً هكذا على وجهي. غداً أرتدي البنطلون الجينز وأضعه داخل البوت وفوقه الجاكيت. لن أرتدي المعطف فهو يخفيني تماماً تحته.

ربما كان من الأنسب ارتداء حذائي ذي الكعب العالي بدلاً من البوت.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لمحت طلاء الأظافر فوق المنضدة. كم هي جميلة أصابعي وقد طليت أظافري بطلاء أحمر، أصابع بيضاء صغيرة زينها الطلاء.

ماذا لو وضعت بعض المساحيق غداً. لأجرب. شفتاي أكثر جمالاً بالطلاء الأحمر وعيناي زادتا إشراقاً بالخط الأسود الذي وضعته بين جفني. نظرت في المرآة. أطلت النظر. ألقيت بالمرآة جانباً وسحبت الغطاء فوق رأسي وفتحت.

خرجت في الصباح كالعادة أحمل كتبي ودفاتري وحقيبتي المكتظة بالأوراق واضعة معطفي على جسدي وحذاء بلا كعب في قدمي. أفكر في دروس اليوم وفي أيامي التي تتسرب من بين يدي، وأنا عاجزة عن إيقاف تسربها. أنهيت عمل اليوم متنقلة بين طلابي أشرح الدروس وأسقط عليها ما أريدهم أن يعرفوه.

خرجت من آخر فصل أجر قدمي ووحدتي وجسدي المنهك الذي لا يتوقف عن الأنين إلى بيتي. مررت على حجرة الأساتذة، قد أجد خطابات. وجدت الأستاذ مصطفى واقفاً. بادرنى بالتحية قبل أن أبدأ في البحث عن خطاب لي في كومة الخطابات الموضوعة على المنضدة.

- كيف حالك يا أستاذة؟

انتزعت ابتسامة ضرورية لأرد عليه.

- بخير..

- كيف تقضين وقتك؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

استنكرت السؤال ولكنني أجبت.

- بين العمل والبيت والقراءة وزيارة بعض الأصدقاء الجزائريين والمصريين.

تمنيت أن يتوقف عن الكلام لكنه استمر..

- الحياة هنا رتيبة ومملة، أليس كذلك؟

كم يتحول الإنسان إلى كائن غبي عندما يفقد إحساسه باستجابة الآخرين أو عدم استجابتهم لما يقول. لم أفعل سوى أن فرّجت شفتيّ فارتخت عضلاتهما لترسم ما يمكن أن يسمى بابتسامة، وقلت له:

- هذه حال كل المدن الصغيرة، وإن كان العمل يقتل الملل والرتابة.

- الحياة ليست عملاً وفقط.

لم أستطع مواصلة الضغط على عضلات وجهي لترسم الابتسامة اللزجة المناسبة لمثل هذه الأحاديث التي تتجاوز حدود العلاقة بيني وبينه، فليس بيننا أكثر من التحية الضرورية.

- أعرف ذلك، وقلت لك إني أقرأ وأتزاور مع بعض الأصدقاء.

- ألن يسعدني الحظ بزيارة مماثلة؟

رجفة سريعة هزت جسمي وتمنيت لو أصفعه وأزيحه من أمامي.. ودون أن أستأذنه تركته للبحث عن خطابات.

كانت الرسالة من فاضل. ما زال يبحث عن العراق، عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أهله وبيته، ووطنه، عن وجوه حبيبة وبعيدة توغل في البعد. آخذ مكاني في قائمة أحبائه الصغيرة ثم أوغل معهم في البعد. ظل الخطاب في يدي. وأنا أحاول تذكر ملامح فاضل، فأنا لم أره سوى مرة واحدة، لم أتذكر منه سوى بريق عينيه كأنه الدمع المخزون في عمق الزمن، وحزن رائع يظلل ابتسامته. ووجود يحتوي كل من حوله. ووحدة طفل فقد أمه في زحمة الحياة.

يا لهذا التواصل الغريب بين البشر. أشكال قد لا نستطيع تفسيرها أو تخيلها. صوته الذي لم أسمعه إلا لبضع ساعات ملأ غرفتي. لقاؤنا السريع مر أمامي بكل تفاصيله. تلامس كأسينا لنشرب نخب لقائنا، ونخب أمنيات صغيرة لنا، ولمصر وللعراق. أحاديث طفولية عن دجلة والفرات والنيل. وإصرار مني على أن النيل أجمل أنهار العالم.

وبود عميق يقول: أنت مصرية متعصبة. لم أتذكر كل هذه التفاصيل قبل الليلة. كان اللقاء عموماً في ذاكرتي لقاء حميماً وصادقاً. حضوره في هذا اللقاء هو الأكثر طغياناً طوال ساعات الليل وحتى الصباح.

* * *

استدعاني مدير المدرسة بعد انتهاء الحصة الأولى إلى مكتبه. أثار هذا الاستدعاء العاجل الذي لم يرجئه حتى ينتهي الجزء الأول من اليوم الدراسي تساؤلي. استقبلتني فريدة سكرتيرته باسمة كعادتها وفاتحة فمها الذي تظهر منه أسنانها المركبة فوق بعضها البعض. كنت أحب ابتسامتها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

هذه، فهي ابتسامة منطلقة لا تشعر صاحبتها بأي عيب خلقي في فمها. وبالرغم من علاقتي الطيبة بها إلا أنها تعاملت معي بشكل رسمي.

- مرحبا يا أستاذة.

لم تكن تناديني بلقب على الإطلاق.. كانت تناديني باسمي مجرداً.

- أهلا يا فريدة؟ كيف حالك وأين أنت؟

- بخير تفضلي حتى أخبر المدير بقدومك؟

- ألا تعرفين سر استدعائه المفاجئ لي؟

- لا أعرف، حالاً سوف تعرفين بنفسك.

كان واضحاً أنها تعرف ولكنها تخفي،. وكعادتي في مثل هذه المواقف أخذت أضغط بأصابعي على بعضها، حتى خرجت فريدة من حجرة المدير وظلت ممسكة بباب الحجرة مفتوحاً حتى دخلت وغمزت لي بطرف عينها مما زاد ارتباكي.

جلس المدير على أحد الكراسي وليس على مكتبه، ومعه رجلان. الأكبر يتجاوز الأربعين والأصغر في حوالي الثلاثين، الأكبر ذو وجه محايد لا يثير أي انطباع، أما الأصغر فيبدو من البشر الذين يؤكدون على وجودهم الحاضر في الزمان والمكان.

الأول مفتش الفلسفة بالمنطقة التعليمية، والثاني مدرس الفلسفة بإحدى ثانويات مدينة عين البيضاء. جلست في

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انتظار معرفة الأمر. تنحنح المدير وسمح لمن طرق الباب بالدخول. كانت فريدة تحمل صينية القهوة. صب لنا المدير وقدم لي أولاً فنجاناً من القهوة. تعجبت من سلوكه المتحضر، خاصة أنه لم يبد نحوي أي تعاطف منذ أول يوم عملت فيه بالمدرسة. أخذت الفنجان من يده وتمنيت لو أستطيع أن أدخن معه سيجارة ولكنها أمنية لو وقعت يمكن أن يؤدي وقوعها إلى ترحيلي فوراً إلى مصر. قدم للرجلين قهوتهما وتناول فنجانه، واتكأ للخلف وقال:

الأساتذة قبلوا ترشيحي لك عضوا في لجنة «ترسيم» الأستاذ جلول، وسوف تصعدون الآن إلى الفصل الذي يحاضر فيه، لتقييم عمله وأدائه وإعطائه درجة بعدها إما أن يثبت في عمله كمدرس للفلسفة أو ينتظر فرصة ترسيم أخرى في العام المقبل.

قلت: وإن لم يرسم العام المقبل.

- ينقل للتدريس في الإعدادي لمدة عامين يعود بعدهما للتدريس في الثانوي ويعاد ترسيمه مرة أخرى.

نظام صارم وكأن مدرس الفلسفة سيخرج جيلاً من الفلاسفة.

- ولماذا أنا؟

رد المفتش: نحن نثق في تأهيل المصريين، فقد تعلمنا في مدارسكم وجامعاتكم ونعرف مستوى التعليم في مصر، كما حدثنا المدير عن كفاءتك واتقانك لعملك.

هو لا يعرف حال التعليم في مصر الآن، ومدى الانهيار الذي أصابه. يبدو أنه يعيش في الماضي.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ثم استطرد المفتش:

- أرجو أن تنسى أن الأستاذ جلول زميل لك، كل ما أرجوه الموضوعية في التقدير، وعلينا أن نضع مصلحة الطلبة فوق كل اعتبار.

بسرعة شديدة وبدون تفكير قلت:

- هل أستطيع أن أعتذر؟

- لا يا أستاذة فقد حددنا اختيارنا منذ فترة وأبلغنا المنطقة التعليمية بقسنطينة.

- ولماذا الاعتذار؟..

- لست أكفأ من الأستاذ جلول حتى أقيمه.

وحسماً للموقف نهض المفتش وتبعه المدير والمدرس، ودعاني أن أسير أمامهم بعد أن فتح بنفسه باب الغرفة.

لم تكن لي علاقة تقريباً بالأستاذ جلول، فقد طلبت منه في بداية العام الدراسي بعض المساعدة في معرفة المقرر والكتب المساعدة، ولكنه تهرب مني وتركني أتخبط حوالي شهر حتى تمكنت بكافة أشكال المحاولة والخطأ من مفردات المقرر وتوزيعه على شهور السنة. وعرفت المكتبة العامة. وعرفت المطلوب مني كمدرسة من شرح للدروس المقررة، حتى عمل الأبحاث وتصحيحها وتوزيع درجاتها. كنت أشبه نفسي بفأر كوهلر في المحاولة والخطأ، وكنت أنجح بشكل أو بآخر.

الأستاذ جلول في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره. م

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مصوص وأصفر كأنه مصاب بمرض خبيث. منطو على نفسه وبعيد عن الناس. قيل أنه تعثر في التعليم وأنه لم يحصل على ليسانس الفلسفة، بل حصل على ليسانس في علم الاجتماع الصناعي، لذا كان أساتذة الفلسفة في المنطقة يعتبرونه دخيلاً عليهم، وكانوا حريصين على إقصائه.

فتح المدير باب الفصل وما أن رآنا الأستاذ جلول حتى قفز من أمام السبورة مرحباً ومسلماً. كانت يده ترتعش. ووجهه كالشمع المشدود لا أثر فيه للحياة. خرج الكلام بصعوبة من حلقه الذي جف. رصت ثلاثة كراسي لنا بعد أن تركنا المدير. خيم على الفصل هدوء المقابر ساعة القيلولة.

وهؤلاء الذين نستجدي سكوتهم ومتابعتهم للدرس جلسوا في مشهد تمثيلي للأدب الجم. يرفعون أصابعهم وأبصارهم للإجابة على الأسئلة في هدوء، ويقفون للإجابة مخفضين رؤوسهم وأبصارهم مرتبين أفكارهم وكأنهم يجاملون أستاذهم في محنته، ويقولون له «نحن رجال، ها أنت تحتاجنا ولن نخذلك».

أما الأستاذ جلول فقد خذلنا جميعاً. لم يقل جملة واضحة. لم يقل فكرة متماسكة. وتقرر تأجيل ترسيمه للعام المقبل.

حاولت الاعتذار للمفتش والمدير والمدرس عن تناول الغداء معهم، ولكنهم رفضوا بشدة. أسعدني رفضهم وتمسكهم بي. إحساس بالثقة في نفسي ملأني. ها أنا أعيش الحياة بمفردي وأنجح. استأذنتهما لدقائق أضع فيها كتبي وأوراقي في بيتي ثم أعود إليهم. انتهزت الفرصة كي أدخن سيجارة. ما أن انتهيت منها حتى طرق بابي سليمان، أحد

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الإداريين بالمدرسة، يتعجل ذهابي إلى مطعم المدرسة.

لم يتركني حتى وصلت إلى هناك. وكانوا في انتظاري. سحب لي كرسياً لأجلس، ثم قال لنا جميعاً «بالصحة عليكم الغداء» وانصرف.

استبدت بي نشوة إحساسي بذاتي وبتحققي ونجاحي. ورفضت ذكرى أي فشل عشته أن تعكر صفو نشوتي. لم تكن المرة الأولى التي أتناول فيها غذائي في مطعم المدرسة. هذا المطعم الضخم المخصص لتقديم وجبة لطلبة المدينة ووجبات للطلاب المغتربين والمقيمين بالقسم الداخلي. تحدثنا في أمور متعددة، في السياسة والتاريخ والفن. وكنت أشعر بوجودي يشغل الحيز، ولسنوات عمري أمامي عندما أسمع أحدهم يقول ما رأى الأستاذة. يريدون معرفة رأيي.

واكتشفت أن لي رأياً يعتد به، بل ويرسم السعادة على وجوههم

بوجودي معهم. ساد بعض الصمت قطعة المفتش موجها حديثه لي:

- المدير يشكو منك يا أستاذة.

- لم أهتز ولم أخف. بثقة شديدة قلت:

- مما يا أستاذ؟

- يرى أنك تعاملين الطلبة بلين زائد وأنك تمنحينهم من الدرجات أكثر مما يستحقون وأن تقييمك لسلوكهم في الجزء الأول من العام كان متعاطفاً.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ضحكت، وقلت: "أي إني متهمة باللاموضوعية."

- عفواً لم أقصد.

- ليس هناك خطأ فيما أعتقد، فالحب والتعاطف وتقدير ظرف كل طالب وطالبة أهم أسس نجاح المدرس في عمله، ثم عن ارتفاع الدرجات فهم يقدمون إجابات تستحق هذه الدرجات. وأنا لا أمتحن سقراط أو كانط حتى أقسو عليهم، وأنا أستخدم معايير إعطاء الدرجات المقدمة لي من المدير ولا أخرج عليها.

علق المدير ضاحكاً:

- كل ما أرجوه بعض القسوة منك حتى لا يتمردوا على زملائك الآخرين..

- لا أستطيع أن أقسو عليهم وها أنا أعلن فشلي أمامكم مقدماً.

انتهى اللقاء وعدت إلى بيتي بسعادة حقة تملأ جسدي الصغير.

* * *

بدأ الجو يتحسن نسبياً. وراحت الثلوج تذوب ببطء وشغلت امتحانات النصف الثاني من العام كل وقتي. وفوجئت بعطلة الربيع دون أن أرتب لها. أرسلت برقية إلى فاضل *أصل تلمسان على طائرة الغد*. نزلت من الطائرة أبحث في وجوه المنتظرين عنه، خفت للحظة ألا أعرفه وألا يعرفني. ترى ما وقع زيارتي عليه؟. ربما أكون فاجئته بها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وأنه كان من الأنسب أن أتصل به تليفونياً، ولكنه سبق أن دعاني لزيارته وفي رسالته الأخيرة أكد على الدعوة.

أليس في زيارتي لرجل وحيد جرأة مني؟ ولكنني كنت أزور أصدقائي الرجال في بيوتهم، وأعتقد أنه ليس متخلفاً. هل أعود من حيث أتيت؟ قطع حواري المتأخر مع نفسي صوته مرحباً.

بارتباك مددت يدي لأسلم عليه.

- هيا بنا سيارتي خارج المطار.

حمل حقيبتي وسار بجواري. نظرت خلسة إليه.. وجهه الهادئ نقل هدوءه إلي. فتح باب السيارة، وظل ممسكاً به حتى ركبت ثم أغلقه وركب من الباب الآخر.

- كيف حالك؟

- بخير..

- كيف حال من في مصر؟

- جميعاً بخير كما يقولون في رسائلهم. هل أستطيع أن أجد مكاناً في فندق هنا؟

قال بعتاب ودود:

- فندق.. لماذا؟ سوف تقيمين في بيتي.

- ألن تسبب لك إقامتي حرجاً؟

- أنا في انتظار زيارتك منذ أول مرة التقينا.

صعدت الدماء حارة إلى وجهي. ماذا حدث لي حتى تأتي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

استجابتي لمجاملته بهذا الشكل؟

قدم سيجارة لي وطلب مني وضع أحد الشرائط لفيروز في الكاسيت وانطلق بالسيارة.

- الغرب الجزائري أجمل بكثير من الشرق وأقل حدة.

- يبدو هذا وإن كانت الخضرة والزهور الثابتة في رحم الجبل قاسماً مشتركاً في كل الأماكن التي زرتها حتى الآن.

أوقف السيارة بجوار أحد المحال التجارية وعاد حاملاً حقيبة بلاستيك خفيفة فظهرت زجاجات النبيذ. وضعها في المقعد الخلفي للسيارة وعاد إلى مكانه.

- هل أرهقتك الرحلة؟

- السفر من خنشلة إلى قسنطينة مرهق، ولكن الرحلة بالطائرة إلى تلمسان ليست مرهقة. وإن كانت سعادتي باكتشاف مدينة جديدة تبدد إحساسي بالإرهاق.

أوقف السيارة ودعاني للنزول..

- وصلنا، مرحبا بك مرة أخرى.

حاولت التغلب على ارتباكي بقول أي شيء لكني لم أستطع. دق جرس الباب ففتح لنا طفل حمل عنه ما اشتراه وجرى يعلن وصولنا لا أعرف لمن..

شعرت بحمل ثقيل ينزاح من على صدري بمجرد أن خرج لاستقبالي أصدقاءه سعدي ومصطفى وطالب وكنت قد التقيت بهم معه في بسكرة.

رحبوا بي بحرارة وصدق كنت في أشد الحاجة إليهما.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عرفني فاضل بمن لم ألتق بهم من أصدقائه: سامية وسعد، وبسمة وعماد وطفليهما. وقفنا جميعاً في مدخل البيت نتحدث. كلنا كنا نقول بأشكال مختلفة «لا يوجد في العالم أجمل من لقاء البشر».

جميعاً سألوني عن مصر وأخبارها، وعن أهلي وأصدقائي. وأنا أجيب على الأسئلة ببساطة من يجيب على أسئلة أصدقاء قدامي.

من صخب اللقاء انسل سعدي وعاد حاملاً صينية عليها زجاجة نبيذ وأكواب وقطع من الجبن والخيار والطماطم، وفي ركن من الغرفة فتح زجاجة النبيذ وصب ما فيها في الأكواب ووزعها علينا جميعاً.

- في صحتكم، في صحة المصرية.

رفعنا جميعاً كؤوسنا وشربنا النخب الذي اقترحه سعدي. تولى سعدي أمر ملء الكؤوس التي لم يدعها تفرغ. لم يتوقف عن الغناء منذ أن جلسنا إلا للرد على تساؤل أو توجيه سؤال لأحدنا. وكما انسل واحضر النبيذ انسل أيضاً وعاد بالصينية عليها أطباق الأرز العراقي بالكاري ولحم الدجاج وبامية. ما أن رأيت البامية حتى شهقت وصفقت بيدي. قال سعدي مرحباً بفرحي بوجود البامية:

- أيه عيني، عرفنا بقدومك فقررنا عمل وحدة مصرية عراقية، أرز عراقي وبامية مصرية، وهذا أضعف الإيمان.

اعترضت سامية قائلة «إن البامية أكلة عراقية» فرد عليها سعدي «عيني إذا كان الخلاف في حدود البامية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تتنازل لكم عنها المصرية».

- الأمر في حاجة إلى تفكير، خاصة أن البامية جزء من تراثنا المصري فكيف أضحى بالتراث.

- فقدنا التراث كله، وهل سنبقى على البامية، في صحة التراث.

وشربنا في صحة التراث كما اقترح سعدي.

زحف التعب علينا جميعاً بعد أن رقصنا وناقشنا كل مشاكلنا القومية من الخليج إلى المحيط، فافترش الرجال الأرض في الحجرة التي كنا نجلس فيها... ونمنا بسمة وسامية وأنا في الحجرة المجاورة، واندس الطفلان بين أقدام الرجال.

ظلت أحداث الليلة تتخبط في رأسي بلا ترتيب، حتى عصف بي النوم الذي يملأ جفوني ورأسي وجسدي. نهضت من فراشي وخرجت على أطراف أصابعي من الحجرة إلى المطبخ. أخذت الكنكة المعلقة على مسمار مدقوق في الحائط ووضعت فيها قليلاً من الماء. بحثت عن السكر والبن حتى وجدتهما. وضعت ملعقة سكر وملعقة بن في الماء وقلبتهما، ثم أشعلت البوتاجاز ووضعت الكنكة فوق النار وانتظرت حتى نضجت. أخذت كوباً من الحوض. غسلته وصببت فيه القهوة ووضعت الكوب على منضدة بالمطبخ. عدت على أطراف أصابعي إلى الحجرة أبحث عن سجائر. وجدت علبة أخذتها وخرجت. أخذت كوب القهوة والسجائر وعلبة كبريت ودخلت البلكونة الملحقة بالمطبخ. جلست على قطعة إسفنج كانت ملقاة على الأرض. أشعلت سيجارة ورشفت أول

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

رشفة من القهوة. الظلام يملأ المكان ولولا أنوار خافتة تظهر من خلف زجاج نوافذ البيوت لما تبينت الغابة التي أمامي. عالم صامت لا يتحرك فيه أحد. نسمات الفجر الباردة تسللت بعمق إلى رئتي. رائحة الشمس. رائحة المكان. تشبعت بها جميعاً ونهضت من مكاني. أغلقت زجاج البلكونة. وعلى أطراف أصابعي دسست جسدي تحت الأغطية بجوار بسمة وسامية. شبكت يدي حول جسدي، احتضنته وشعور بالرضا يملأني.

قفزت من فوق السرير. خلعت قميص نومي.. ارتديت بنطلون جينز وبلوفر أحمر وخرجت من الغرفة التي لم يكن بها أحد سواي. سعيدة ومنتشية كنت. وانطلاقة رائعة تملأني. لم يكن بالغرفة الأخرى سوى فاضل.

- صباح الخير، أين بقية الأصدقاء؟

- عادوا إلى بيوتهم، وسوف نلحق بهم. كان المفروض أن نذهب معهم ولكنك كنت نائمة.

- لماذا لم توقظني؟

- لم أشأ أن أزعجك خاصة أنك لم تنامي إلا في الصباح. أخذت أحد الكراسي وجلست..

- كيف عرفت؟

- شعرت بك؟ فانا أيضاً لم أنم.

- لماذا لم تأت لتجلس معي؟

- خفت أن أضايقك، تصورت أن بك رغبة للإنفراد بنفسك.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جذبت نفساً عميقاً وقلت له:

- أنا منفردة بنفسي منذ أن جئت إلى الجزائر. أنت لا تعرف كم أكره الوحدة ولا أتصور نفسي إلا ملتحمة بالبشر.

نهض إلى المطبخ لإعداد الشاي والإفطار، وذهبت أنا للحمام، الماء الساخن المسكوب على جسدي وشعري أعطى لي إحساساً باللذة والانتعاش. تمنيت لو بقيت طوال اليوم تحته. مشطت شعري ووضعت بعضاً من العطر..

- أعددت الإفطار هيا لنأكل.

- شكراً أنك فعلت ما كان ينبغي أن أقوم أنا به..

- ولم أنت؟

- اعتدنا أن تقوم المرأة بالأعمال المنزلية؟

- من الذي اعتاد؟ بالنسبة لي منذ أن تركت بيت أسرتي في الحلة لألحق بالجامعة في بغداد وأنا أعد أشيائي بنفسي، وأنت لا أتصور أنك امرأة عادية وظيفتها الأساسية البيت.

ابتسمت لثقته الشديدة في طرح الأمر، كأنه يعرفني منذ سنوات، ولجديته في الحديث، كما لو كان يرد على قضية موضع نقاش.

- لا تنزعج بهذا الشكل فأنا أوافقك على ما قلت، دعنا نأكل أولاً..

استمتعت بأشعة الشمس الدافئة التي ملأت المطبخ وتجا وزته إلى غرف البيت.

- ما رأيك في فنجان قهوة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- اقتراح رائع على أن نشربه في البلكونة.

- سوف أعد القهوة، تستطيعين الدخول حتى أجئ لك بها.

- سنصنع القهوة أيضاً، أشعر أنني أعامل في بيتك كضيف فوق العادة.

بود قال:

- أرجوك لست ضيفة، أنتِ صديقة، وصديقة حميمة. وبيتي هو بيتك، ولكن أردت أن أعبر عن سعادتي بوجودك حتى ولو بهذا الشكل البسيط.

- أنا أيضاً سعيدة بوجودي معكم.

امتد الصمت بيننا. كانت عيناه مصوبتين في اتجاه الشرق. انتظرت أن يتحدث.. أن يخرج عن صمته، ولكنه لم يفعل، حاولت أن أتحدث، أن أقول أي شيء، لكن صوتي كان محبوساً داخلي. اختلست النظر إلى وجهه الذي اكتسى بهدوء وسكينة لا حد لهما. لو أستطيع أن أعرف فيما يفكر ومع من هذا التواصل.

- كم عذبتُ أمي.

قال جملته وتوقف. لم تكن لي ولم تكن لأحد..

- ماذا فعلت لتعذبها؟

- كنت أحبّ أبنائها وأكثرهم اقتراباً منها، ألا يكفي هذا لتـ تعذب؟

أشعل سيجارة وقدم لي واحدة، كأنه لا يتحدث مع أحد واصل كلامه:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- ما أن بدأت تلمس وجودي بجانبها رجلاً سنداً حتى فقدتني.

أعرف ذلك الولد. لم يشغله عشق جارته الحسناء، لم يتحسس يدها في الظلام. لم تحتوِ سخونتها جسده في ليالي الشتاء الوحيدة. لم يقطف ليالي القمر الساهرة أمام المنازل. أعرفه يقطف المستحيل ويعشق الآتي. أعرف فزع أمه. أعرف ليالي باتت فيها مسهدة تبحث عن تفسير لما أصاب ابنها. أعرف قلبها يدعو في صلواته أن يهديه ويعيده إليها. أعرف عقلها القانع لولا الخطر القابع في انتظاره. أعرف خروجها الأول من القرية إلى المدينة متشحة بالسواد تلتف أقدامها حول بعضها ولكنها تشد ظهرها وتسير تبحث عنه خلف الأوراق المختومة وخلف كلمة ينطق بها صاحب النياشين والأوسمة. أعرفها وأعرفه.

دق الباب بسرعة، انتفضنا معاً لنفتح. كان الطارق سعدي.

- ماذا حدث لكما؟ تأخرنا كثيراً..

قال له فاضل:

- معذرة انتظرت أن تستيقظ صديقتنا.

- لا أستطيع أن أصدقك، أعتقد أنك انتهزت فرصة خروجنا وأكملت نومك.

- ما رأيك في فنجان قهوة بعدها أستطيع أن أسمعك.

- أوافق بشرط السرعة عينى، فقد قررنا الذهاب إلى غابة بني صاف وسوف نشوي لحماً وسمكاً ونشرب نبيذاً.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والله يبدو أن النبيذ أصبح مغشوشاً في هذه الأيام فلم يعد يؤثر فيّ.

قلت له: «وكيف يكون تأثيره يا سعدي؟»

- عيني أسكر، وأي شيء أبغى سوى السكر..

أخذ فنجان القهوة من يدي وهو يواصل كلامه

في العراق كنا نبدأ السكر في المساء في أي بار من البارات ولا ننتهي إلّا في الصباح. أحيانا كنت أفكر في كتابة عنواني على بار أبي نواس.

-وأنت يا فاضل أين كان عنوانك ؟

-أيضا بار أبي نواس..

لم استطع الرد . قتامة غريبة بددت بهجة صباحي. ولم تخف قتامتي على سعدي، بل يبدو أنها انتقلت إليه فقد أغمض عينيه لحظة ثم قال : -

-عيني عندما تفقدين كل شيء كان بين يديك، عندما تغتال أعضاؤك في الشوارع وتنتهك، وقاتلك يقرع كأسه في كأس زعمائك، لابد أن يحدث خلل ما ولو لبعض الوقت.هيا بنا تأخرنا إلى متى سنقول تأخرنا ؟ ألن نتقدم أبدا أو على الأقل نصل في موعدنا .

خرجنا إلى الشارع وركبنا سيارة فاضل ظللنا صامتين، بينما سعدي يدندن، بأغنية لم أتبين منها سوى مقطع واحد: يا أمي لا تبكي علي، أنا المناضل يا هنية، كان اللحن راقصاً بينما الكلمات موجعة. قلت له: «ألا تتوقف عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الغناء أبداً؟».

- ولماذا؟ أليس الغناء حقاً مشروعاً لكل مواطن؟ ثم اسمعي قصة هذه الأغنية، هي من أغانينا الحزبية التي تغني للمعتقلين.

في العراق خباز اسمه أبو علي، كان يحب الشيوعيين ويتعامل مع نفسه كصديق شخصي لزعماء الحزب، وأسمى أبنائه بأسمائهم. عنده فهد وسلام عادل. وفي إحدى الهجمات المفاجئة علينا أعتقل عدد كبير. والمفاجأة أربكت من لم يعتقل فاضطررنا لتغيير أماكننا والاختفاء. ولم نرد سريعاً ببيان على حملة الاعتقال تلك، فقام أبو علي بجمع شباب الأحياء المجاورة وكانوا من المتعاطفين مع الحزب. عموماً لم يكن في العراق بيت يخلو من عضو في الحزب أو متعاطف. كنا منتشرين وفاعلين. وكتب بيانا ضد الاعتقال وضد النظام، وكلف الشباب بنسخه وتوزيعه على المقاهي وفي الشوارع وتوزيعه بالدراجات، واستخدام الدراجات في توزيع البيانات طريقة كنا نستخدمها. كان البيان ركيكاً ومعظمه باللغة العامية، ولكنه وزع. وبعد الانتهاء من توزيعه فرق أبو علي الشباب، وجلس على أحد المقاهي يتابع. كان خبر توزيع بيان الحزب قد وصل للداخلية فقامت قواتها بالبحث عنه وجمعه. وبالفعل دخلت قوة من المباحث المقهى التي يجلس عليها أبو علي للبحث عن البيان فأمسك بنسخة وأخذ يقرأ بصوت عال لإغاظتهم فلم يلتفتوا له، هموا بالخروج ، فأخذ يغني: «يا أمي لا تبكي علي أنا المناضل يا هنية» أيضاً لم يلتفتوا وخرجوا.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كان أبو علي وغيره يقسمون دخولهم مناصفة مع الحزب، بالرغم من كونهم فقراء وغير أعضاء. كنا في أنشطتنا الحزبية المختلفة نجددهم أول من يقدم المساعدة. أذكر في حملات التطعيم وفي محو الأمية وفي دروس التقوية للطلاب التي نقدمها، كانوا يقدمون كل شيء بداية من بيوتهم حتى قروشهم القليلة.

- دائماً حلمهم بنا أكبر من قدرتنا على تحقيقه.

- رجاء توقفا عن هذا الحديث.

برجاء حقيقي طلب منا فاضل أن نتوقف عن الحديث. كان الحديث كما يبدو يؤلمه، فتوقفنا.

وصلنا غابة بني صاف على البحر مباشرة. وشوينا اللحم والسمك وشربنا النبيذ وغنينا وقلنا نكات على حكامنا القردة وكأننا ننتقم منهم بآخر وسائل الانتقام المتاحة لنا. لا أتصور أن هناك شعباً في هذا العالم يعشق الحياة كما يعشقها العراقيون، فهم صانعو بهجة حقيقيون.

غَربُت الشمس وقرروا الرحيل..

لم أستطع النهوض بشكل متوازن.. فالأرض تهتز اهتزازاً خفيفا ناعماً بي، كأنها موجة هادئة تحملني. أخيراً نهضت وضحكت ضحكة عالية وقفزت في الفضاء وهبطت ثانية على الأرض. جريت في اتجاه البحر، احتضنت رائحته، داعب الهواء صدري وعنقي وشعري. زفرت ما في أعماقي امتلأ نفسي بهواء البحر، وضع فاضل يده على كتفي وقال:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- هيا، سبقونا إلى السيارات.

- لا أريد أن أغادر المكان. أريد أن أبقى طالما أستطيع الوقوف.

أمسكت بيده وجلسنا على الرمل، وكأني اكتشفت جزءاً من نفسي لم أكن أعرفه.

قلت:

- لحظة واحدة هي التي تشعر فيها أن العالم كله ملكك. لحظة دخول نسمة هواء لأعماقي، فكيف تضيع هذه اللحظة.

أمسكت بقطعة حجر في يدي وضغطت عليها، وبكل قوتي ألقيت بها إلى البحر.

- كأنك تلقين بنفسك إلى البحر وليس بالحجر.

- ومن قال لك أنني لم ألق بنفسي في البحر، أنا أسبح فيه الآن.

نظر إلى الأرض وعبث بأصابعه في الرمل. أطلت النظر إلى وجهه. فيما يفكر، في أي البحور ألقي بنفسي؟ عيناه صافيتان ووجهه هادئ. ظل هدوء وجهه حزنه النبيل. «ما الذي استدعى حزنه».

- فيم تفكر؟

- في أشياء كثيرة، وأنت؟

- كنت أفكر فيك.

- كيف؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- حزنك أكبر من أن تحمله بمفردك.

- قدري أن أحمله بمفردي.

مددت يدي وأمسكت بيده، وضعتها بين يديّ.

- لماذا تشعر بكل هذه الوحدة؟

- لأني فعلا وحيد.

- كيف تكون وحيدا وأنا أحبك..

- ماذا؟؟

- أحبك..

نهضنا، ولم نعرف كم من الوقت مضى. عدنا إلى البيت، وقد سبقنا كل الأصدقاء. لم يعلق أحد على غيابنا. التحقنا بهم كأننا لم نكن غائبين.

طلبت أن يملأ لي سعدي كأس نبيذ. وذهبت إلى البلكونة الملحقة بالحجرة. أتطلع إلى الفراغ الممتد أمامي. ماذا فعلت؟ قلت إني أحبه. هل أحبه فعلا؟ متى أحببته ولماذا؟ أسئلة كثيرة وساذجة لا يمكن الإجابة عليها. كل ما أحسه أنه أقرب إنسان إلى قلبي، وأنني أحتاج له أكثر من احتياجي لأي إنسان آخر، وأنه يحتاج لي أكثر من احتياجي لأي إنسان لي، قد يكون الأمر مجرد رد فعل للغربة. نظرت بعمق إلى نفسي، وجدتها انشطرت نصفين يتصارعان. نصف واهن ضعيف لا يقوى حتى على استسلامه، ونصف عنيد يضغط على ضعفي ويواجهني به.

طلبت من سعدي أن يملأ لي الكأس مرة أخرى.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- لماذا لا تشاركيننا.. أبقى معنا.

- أنا معكم.

جلست بجوار مصطفى الذي أشعل لي سيجارة وهو يقول:

- أسعدنا وجودك معنا.

أخيراً تحدث مصطفى، فهو دائم الصمت.

- متى تعودين إلى مصر؟

- في نهاية العام الدراسي. وسألته.

- ألم تفكر في زيارة مصر؟

- كلنا نتمنى أن نزور مصر، ولكن في هذه الظروف أعتقد أن في السفر مخاطرة.

- لماذا؟

- قد تسلمنا السلطات المصرية للسلطات العراقية.

- ولكن العلاقات بين البلدين مقطوعة.

- عندما يكون العدو الأساسي للنظامين هو الشعب، فالعلاقات تعود فوراً.

- مصطفى.. هل أنت متزوج؟

سألته لأنني لمحت خاتم الزواج في إصبعه ولم أر زوجته.

- نعم متزوج..

- وأين زوجتك؟

- لا أعرف!!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- ماذا؟ كيف لا تعرف؟

- بعد حملة الاعتقالات والاغتيالات الأخيرة صدر قرار من الحزب بخروجنا من العراق، بشكل فردي. خرجت هي أولا لا أعرف إلى أين. فقد كان خروجنا يتم سراً لا يعرف حتى المسافر إلى أين يسافر، خشية فشل الهرب في آخر لحظة، وربما يؤدى الضعف مع التعذيب إلى الاعتراف بالمكان وبمن ساعدوا على الهرب. فقط يعرف ويجهز مسئول بالحزب المهمة بكاملها. ومنذ أن خرجت من العراق وأنا أبحث عنها. لم أترك مكاناً به شيوعيون عراقيون إلا وأرسلت لهم، أسأل عنها. وما زلت أبحث.

- إلى متى؟

- حتى أجدها. أريدها أن تعرف أني لم أتخل عنها.

- هل تشعر بالذنب لأنك تركتها تهرب بمفردها؟

- لا ليس إحساساً بالذنب، زوجتي مناضلة وليست طفلة في حاجة لرعايتي، فقط لأنني أحبها.

ما زال في القلب مكان للحب، ما زال للقلب قدرة على العشق، ما زال على القلب أن يتحمل الانتظار.

كان فاضل يتابع حديثنا دون أن يشاركنا فيه.

كان يعبث ببقايا السجائر في المنفضة التي يطفئ فيها سجائره، تابعت حركة أصابعه تمسك بأعقاب السجائر وأعواد الكبريت، ترسم خطوطاً مستقيمة ومتعامدة على

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الرماد المحروق.

استأذنت منهم مدّعية الرغبة في النوم. كنت أهرب من مواجهة كل هذا الألم. ألم الراقصين كالديوك المذبوحة تنتفض تشد الروح إلى الجسد فينهاران معاً، ألم الباحث عن معنى لاستمرار حياته، ألم الصامت يبحث خلف صمته عن الوطن الضائع.

لم يكن في الغرفة سوى شعاع الضوء المتسلل عبر النافذة راسماً دوائر ومربعات فوق السرير. وصمت يتحرك جسدي فيه، وأنا محاصرة بين العقل وما ينبغي أن يكون، وبين أنين خافت لحلم لم تتضح معالمه بعد، وصراع بين العقل والحلم لا يهدأ.

سمعت طرقات، انتفضت لسماعها.

- من؟

- أنا، هل تسمحين لي بالدخول.

- نعم تفضل..

دخل إلى الحجرة دون أن يشعل النور، اقترب من السرير، جلس على طرفه بعيداً عني.

توقف ذهني عن التفكير. زاغت عيناي. الزمن توقف وأنا خارج حدود توقفه.

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك.

لا أعرف من أين أتى لي هذا الثبات وأنا أرد عليه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- إطلاقاً فأنا لم أنم بعد.

- أنا أيضاً لم أنم، فقد رحل الأصدقاء إلى بيوتهم ونام سعدي وطالب ومصطفى منذ فترة.

* * *

امتد الصمت بيننا. لم يقل شيئاً، وأنا لم أجد ما أقوله. هارباً من الصمت قدم لي سيجارة وأشعل لنفسه أخرى. أخذ نفساً عميقاً من سيجارته المرتعشة بين أصابعه. تطلع إلى خيط الدخان المتصاعد كأنه يخاطبه ولا يخاطبني أنا. قال:

- ليس عندي ما أقدمه لك. ليس عندي وطن، وليس لي مكان في بلدان الوطن العربي الكبير. الأمان المفقود انتزع مني حق ممارسة الحياة، وأنت أصدق ما في حياتي، لا أتصور أن أسبب لك ألماً. ألم الغربة إلى آخر العمر، ألم انتظار طائرة في أي مطار في العالم، ألم البحث عن حجرة فارغة في فندق يقبل قروشنا القليلة. لا أتصور أن أحملك مأساة تجربة بكاملها لا ذنب لك في نتائجها المريرة.

اعتصر قلبي. لم يكن هو الرجل الذي داعب قلبي بالحب. كان طفلي يضغط على أحشائي الراجفة أخشى عليه من الخروج للعالم القاسي وأحلم له بعالم رائع ألده فيه.

- أعرف كل ما قلت. لست بعيدة عما يدور حولي حتى تتصور أنك تفاجئني به.. أتمنى لي ولك ولكل البشر أوطاناً آمنة وبيوتاً وحدائق وأطفالاً أصحاء، ولكن حتى يتحقق ما أتمناه لن أتوقف عن الحياة وممارستها وعيشها كما هي حتى آخر لحظة في عمري. قد أشعر باليأس أو بالندم أو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الخيبة. ولكنني لن أتوقف عن عشقي للحياة وهذا يكفي.

كنت أغوص بعيني داخله. كنت أشعر أني قوية، أقوى من أي وقت مضى في حياتي.

نهضت من تحت الغطاء وقفزت إلى الأرض. أمسكت يده الباردة المرتعشة، وقلت له:

- سوف أبدل ملابسي لتتحول بالسيارة في شوارع المدينة وننتظر الفجر في غابة بني صاف.

الغابة والبحر في انتظارنا.. هدلت أغصان أشجار الأرز ناعمة إلى رحم الأرض. رائحة الأرض المروية بقطرات الندى البكر. جمال احتواني واحتويته. توحدت معه وتوحد معي. تفتحت له سنوات عمري الذي مضى وسنوات عمري المقبلة. ابتلعت الهواء القادم من البحر حاملاً صوت حفيف أوراق الشجر وغموض الأفق الممتد بيننا وبين الشاطئ الآخر الذي نعرف أنه موجود ولكننا لا نراه، ونهفو للإبحار والغوص بين الأمواج، تطوينا، تحملنا إلى هناك، إلى ما ليس بين أيدينا، إلى المجهول الرائع الذي لا نعرف.

أنشبت أظافري في الأرض، اقتلعت العشب، فَتَّتُه بين أصابعي. نطف الحياة وُلدت بين أناملي. لملمت سنوات عمره المهزوم، وحملته في سفينتي ورحلنا.

* * *

أعددت حقيبتي الصغيرة ووضعتها في ركن الغرفة استعداداً للرحيل..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- سوف تعودين إلى خنشلة وأعود إلى وحدتي.

لم أستطع الرد عليه، فوحدته المتوحشة تهاجم أي منطق.

وصلت الطائرة إلى قسنطينة. كنت قد اتصلت تليفونياً بشهيدة لتنتظرني في المطار ولنقضي يومين قبل نهاية العطلة معاً في قسنطينة.

كانت في انتظاري تتطلع في وجوه المسافرين بحثاً عني، لمحتها من بعيد تحمل حقيبة صغيرة وجاكيت على يدها. لمحت شحوباً في وجهها وظلال إرهاق ربما من آثار الرحلة. لوحت لها بيدي حتى تراني، جريت في اتجاهها، تعانقنا.

- اشتقت لك، أرجوك لا تغيبي عني طويلاً بهذا الشكل.

- أنا أيضاً افتقدتك بشدة.

- حملنا حقيبتينا وسرنا، أخذنا تاكسي إلى وسط المدينة.

- أين سنذهب؟

- يمكن أن نقيم اليومين في المدينة الجامعية عند صديقاتي.

- وماذا عن الفنادق؟ لماذا لا نقيم في فندق؟

- ممكن كما تحبين، أردت أن نوفر الدراهم.

- لن نوفر دراهم بعد اليوم. سوف نقيم في فندق ونأكل في مطاعم أيا كانت دراهمنا. إنهما يومان لن نقضيهما في طابور صرف الطعام في الحي الجامعي. يكفى ما ينتظرنا في خنشلة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- اتفقنا أيتها «التلفانة».

توقف التاكسي أمام فندق سيرتا في وسط المدينة. نزلنا، حجزنا غرفة، ما أن أغلقنا بابها علينا حتى بدأت شهيدة تدق على المنضدة بأصابعها وتهز جذعها في حركات طفولية فرحة.

- لم أحلم يوماً بالمبيت في هذا الفندق. إنها مغامرة بالنسبة لي.

- أيتها الساذجة لا يوجد فرق بين هذه الحجرة وحجرتك في الحي الجامعي.

- لا.يوجد فرق. أنا هنا بإرادتي. إحساسي وأنا أدفع ثمن المبيت إحساس مختلف. الماء الساخن والبانيو أشياء صغيرة وبسيطة ولكنها مفرحة.

رفعت سماعة التليفون وطلبت فنجان قهوة مع قطعتي جاتوه. وما أن وضعت السماعة حتى صرخت شهيدة في وجهي قائلة:

- وهذا أيضاً مختلف، وكأننا ملكات نطلب قهوتنا بالتليفون.

- إنه أمر جميل. لا أكتمك سراً أنني أيضاً منتشية وواثقة بنفسي مثلك، وكأنني أصنع معجزة.

ولكن ما رأيك يا أستاذة فيما لو كنا الآن في أحد فنادق إسبانيا وبدلاً من القهوة طلبنا زجاجة نبيذ.

- دعينا نستوعب أولاً قسنطينة حتى يأذن لنا الله بالفرج ونذهب إلى إسبانيا أو فرنسا. سوف آخذ حماماً حتى تأتي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

القهوة.

تمددت على السرير. غصة ملأت حلقي ولوعة اعتصرت قلبي، وكأن عودتي وتركي لفاضل حدثا الآن.

قمت لأفتح للجرسون الذي حمل لنا القهوة وطلب الثمن بالفرنسية ولأني لم أفهم قلت له ضع الثمن مع حساب الغرفة.

خرجت شهيدة من الحمام تدندن بأغنية لعبد الحليم حافظ.

- هيا لتأخذي حماماً أنت أيضاً.

- بعد أن أشرب القهوة.

كانت شهيدة نائمة عندما استيقظت في الصباح. لبست ملابسي وخرجت إلى الشارع. سرت بضع خطوات خارج الفندق حتى وصلت إلى سلم صعدت درجاته حتى نهايتها إلى وسط المدينة. واصلت سيري حتى وصلت إلى أحد الجسور السبعة التي تربط الصخرتين اللتين أقيمت عليها المدينة فوق الجسر ونظرت أسفله. هوة عميقة واسعة مكسوة بالنباتات البرية الخشنة. شعرت بدوار وأنا أنظر، وكأن يداً ستدفعني من الخلف لأسقط في هذا العمق. تركت المكان خائفة مرتعشة. من أتى بي إلى هنا؟ وكيف أعود وإلى أين أعود؟ لا مفر من المواصلة في هذا العالم الواسع، لا مفر من أن أحمل نفسي وأسير بها أشق الصخرتين وأعبر جسورهما، أتطلع إلى البيوت فوقهما وفي بطنهما تتسلقها النباتات الجافة كأنه الصخر شرب آخر قطرة ماء فيها. لقد أتيت ولن أعود، لن يبتلعني الصخر ولن تلتف حولي الأغصان الجافة تمتص مائي. الوهن الدابُّ تحت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

جلدي. الرجفة العاوية في رأسي. أقدامي المكبلة بسلاسل سوف أحطمها وأسير. سوف أحطم وهني وضعفي ولن يبقى مني إلا قوتي، وقدرتي على المواصلة.

تركت جامع ابن باديس خلفي وسرت في شارع عكسي. الشارع يتجه إلى أسفل بانحدار شديد. بيوته متلاصقة على الجانبين. وتكاد تلتصق واجهاتها لولا ضرورة وجود ممر للسير. لم أر أطفالاً يلعبون ولا محلات تجارية. كان هادئاً، لولا صوت أغنية انبعثت من خلف جدران أحد بيوته لتصورت أنه مهجور. واصلت السير سمعت همساً خلفي وصوت رجل يقول لي «مرحبا» التفت سريعاً إليه. لم أرد وتركته وواصلت السير.

واصل سيره خلفي وهمس بلزوجة:

- تفضلي، عندي طلبك.

اضطربت نبضات قلبي. ارتعش وجهي، وارتبكت ساقاي. فقدت قدرتي على التصرف. بعد لحظة قررت العودة من حيث أتيت. ما أن أدرت وجهي حتى وجدت امرأة سمينة مصبوغة الشعر ومثقلة بالذهب تسد عليَّ الطريق، واضعة يدها على كتفي. جذبتني إليها وهي تضغط علي. زحفت أصابعها من كتفي إلى عنقي. أقشعر بدني. لم أستطع أن أتحرك أو أنطق. أمرت الرجل بالانصراف قائلة «اتركها لي طلبها عندي». ثم توجهت لي قائلة:

- مرحبا بك، طلبك عندي، اسألي عني في أي وقت تحتاجينني فيه.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صرختي ارتدت إلى أعماقي. دوار رهيب أصابني. أزحت يدها عن عنقي، وجريت. ظللت أجري، وأجري. لا أسمع سوى لهاثي وصوت قلبي ووقع قدمي، لا أشعر إلا بالدوار الرهيب. تقيأت كل ما في جوفي. تقيأت دماً.

خيوط الدم النازفة من جوفي إلى فمي قطرات تتجمع في بؤرة على الأرض، رفعت رأسي. خيوط الدم تتفجر من الصخرتين وتزحف، تصل إلى بؤرة دمي، سقطت على الأرض، خيوط الدم تزحف من البحر تتجمع في بؤرة دمي. يد المرأة تزحف على جسدي. يد الرجل تأخذ مكانها فوق جسدي. وأيدي كثيرة امتدت. أبحث في الأيدي الممدودة عن أصحابها. يده السوداء تمسح الدم عن جسدي. يده السوداء مدلاة بجوار جثته المعلقة في ساحات الخرطوم. امتزجت قطرات دمه بماء النهر. تشبثت بالنهر. قبضت يدي على الماء. أمسكت بيد معروقة. تشبثنا معاً بماء النهر.

توقف صوت محرك السيارة المتسللة ليلاً إلى بيتنا. قفزات سريعة من داخله وأبوابه تغلق بعنف. صعدت الأقدام داخل الأحذية المرتفعة العنق غليظة الكعب على الدرجات الثلاث التي تسبق باب بيتنا. كوّريده ليطرق الباب ولكنه انفتح أمامه، لم يكن مغلقاً. اندفعوا إلى الداخل. انتفض أبي واقفاً من على مقعده في أحد أركان الصالة. سقطت السيجارة التي كان يدخنها من يده حاول أن يسأل. لم يستطع. لم يتمالك نفسه. جلس على المقعد مرة أخرى. سأله كبيرهم عني. قال «في القاهرة».

ارتفع صوت الأحذية على الأرض تنطلق كالفئران. دفع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

باب الغرفة بقدمه. صرخت بصوتها الصغير. فقد كانت تبدل ملابسها. احتمت بكفيها الصغيرين من الدناءة التي تحملها الأحذية ذات الأعناق الطويلة والكعوب الغليظة. امتدت يده إلى كتفها شعرت بلزوجة اليد الممدودة. دفعتها عنها. لم تعبأ بحجم الذي ظهر من جسدها وما كان يغطيه كفها الصغير. سألها عني وما أن ذكر اسمي حتى شعرت بألف خطر يحاصرني. كانت أصغر من أن تعرف أن هذه الأحذية أضعف من أن نخافها. انتابها إحساس بالغثيان. أرادت أن تتقيأ فوق الأبراص الزاحفة على الأرض، بيدها دفعتهم وبيدها أغلقت باب الحجرة. وبكت.

شعرت أن قلبي يتفجر. مددت يدي إليه أتحسس النازف منه. لم يكن دماً، كان دموعاً. حرقة رائعة ملأت صدري. انسابت دموعي على وجهي حميمة، روت عذوبتها ضعفي وسقطتي. أزحت كل الأيدي المدلاة بجوار جثثها في الخرطوم وبغداد وقاهرة المعز. اتكأت على الأرض شددت قدمي وصلبت عودي ونهضت. جريت. وقلبي سكب دمعه على شفتي من روعة الحرقة داخلي، تطهرت روحي من دنس الدم في شارع البغاء، من دنس الدم المسكوب تحت الأحذية، من دنس الدم المهزوم في الساحات. سكبت آخر دموعي في صدر شهيدة ونهضت.

* * *

لا أستطيع أن أقول أن الربيع قد أقبل، فالزهر في قلب الصخر لم يذبل طوال فصل الشتاء ولم يختف اللون. كانت الألوان تملأ الفراغ المحيط بالمدينة والجبل، السحب الكثيفة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم تستطع أن تلقى بوحشتها على أزهار الجبل ونباتات الأرض. لكنه الربيع قد جاء، أيامه أشرقت مع الشمس التي لم تذب الثلوج من فوق قمم الجبال بعد.

نهضت من نومي في نفس الموعد أتثاءب في كسل لذيذ. كسل من تتخلل خلاياها كل نسمات الحياة، وتقبض بين يديها على لحظة مولدها. فتحت شباك حجرتي أتطلع إلى الجبل والشمس وشعاعها الدافئ يتسرب إلى نفسي. ابتسمت في رضا وأنا أملأ رئتي بالهواء المعطر.

* * *

في طريقي إلى الفصول التقيت بنادية وفلاديمير. تبادلنا التحية، تمنيت لو أمسك بيديهما وأجري. قفزت إلى أعلى لمست غصن شجرة الأرز. قطفت بضع وريقات خضراء فركتها بين أصابعي ورفعت كفي إلى أعلى وتركتها تتساقط منه.

غفوت وأنا بملابسي ممددة على سريري بعد عودتي من المدرسة فقد استبد بي ألم الظهر والساقين بعد ثماني ساعات من العمل المستمر وقوفاً والشرح المتصل. هذا النوع من الألم وليد العمل يسعدني. أشعر معه أن خيوط الألم الزاحفة من ساقي إلى ظهري وكتفي خيوط تربطني بالحياة. وأنا في غفوتي سمعت طرقات على الباب. تمنيت أن تكون حلماً حتى أواصل نومي ولكنها لم تكن، فقد أصر الطارق أن يوقظني. كان رشيد زوج رفيقة.

- مرحبا يا رشيد تفضل.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- لن أدخل، سوف انتظرك خارج المدرسة لنذهب للبيت.

خرجت مسرعة وانتابني القلق على رفيقة.

- ماذا هناك يا رشيد هل رفيقة بخير؟

- نعم بخير وسوف ترينها بنفسك.

ظل صامتاً طوال الطريق حتى وصلنا إلى بيتهما.

حاولت رفيقة أن تداري آثار البكاء بابتسامة مفتعلة وترحيب مبالغ فيه لم احتمله، فطلبت من رشيد أن يتركنا بمفردنا. وبادرت بسؤالها عن أحوالها مع رشيد. ما أن سمعتها حتى واصلت بكاءها الذي بدأته لا أعرف متى. ربت على شعرها وأخذت رأسها في صدري.

- رفيقة ماذا حدث تكلمي؟

جففت دموعها وطلبت مني سيجارة.

- هل تقبلين أن يضربني رشيد؟

- ماذا؟ لا طبعاً، لا أقبل. كيف حدث هذا؟ ومتى؟

- اليوم.

- لماذا؟

- اسأليه لماذا؟

- أريد أن أعرف منك.

- دعيه يقول لك.

جففت دموعها وواصلت حديثها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- أعرف أن من عادتنا ألا تأكل النساء مع الرجال حتى ولا مع أزواجهن وأبنائهن الكبار، ولكنني أكره هذه العادات.

- ناديت رشيد وسألته:

- لماذا استدعيتني يا رشيد إلى بيتكم؟

- حتى تحكمي بيني وبين هذه المهبولة.

- وتريد حكمي الصادق.

- نعم..

- أنت مخطئ. كيف تضربها؟

- استفزتني وأثارت غضبي.

- ليس هذا مبرراً كافياً. ثم أنها لم تخطئ. ما الخطأ في أن تشاركك وأصدقاءكما الطعام.

- هذا ضد عادتنا. لن يقبل أي منهم أن تشاركنا زوجته الطعام.

- أرجو أن تعتذر لها وأن تحلا مشاكلكما بشكل أهدأ. ألا ترى أني لم أشرب القهوة حتى الآن.

كان لابد أن ينتهي الموقف بشكل أو بآخر، وأن يظل السؤال معلقاً دون إجابة: كيف تمارس الحرية في أقصى صورها ويمارس التخلف في أحط صوره، من نفس الشخص وفي نفس البيت؟ ومن خلق هذه الازدواجية فيهم وفينا جميعاً؟

* * *

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أطفأت نور الغرفة وأخذت سجائري. دسست جسدي تحت الأغطية واتكأت على وسادة خلف رأسي لأدخن سيجارة قبل أن أنام.

كانت نارها هي مصدر الضوء الوحيد في الغرفة وكان سؤال مشتعل في رأسي يبحث عن إجابة واضحة ومحددة. إلى أين أنا ذاهبة؟ تتنازعني مشاعر مختلطة، مشاعري بالحب التي اندلعت من داخلي لفاضل، وكأنني لم أحب من قبل. وهذه المشاعر الباهتة التي أحملها لحياة باهتة فقدت كل مقومات الاستمرار، استمرارها ولسنوات طويلة.

كانت دوافع استمرارها من خارجها ومن خارجي. كنت واعية لما وصلت إليه علاقتي بزوجي. وكنت أرى عمري يتسرب من بين أصابعي. وخيوط محكمة حولي تمنعني من اتخاذ موقف وتصنع بي ما تشاء. أحلامنا التي انهارت حلماً وراء الآخر. وكان السفر مخرجاً، أو هكذا تصورت. ولكن اللون الباهت يأتي معي ويتعمق إحساسي به. ويأتي فاضل لينتزعني من عمق اللون الباهت ويفجر بصمته قدرتي على عيش المستحيل.

أغمضت عيني، احتضنت العالم بين ضلوعي. ويد حانية تربت على شعري ورحت في نوم عميق.

فتحت عيني لضوء الشمس الرائعة التي تسللت إلى غرفتي وتسللت إلى جسدي بدفئها اللذيذ. أزحت الغطاء وقفزت إلى الأرض وابتسامة متوهجة تملأني. أنهيت طقوسي الصباحية وخرجت إلى تلاميذي. كنت أغني وأنا أسير إليهم أغنية فيروز «من عز النوم بتسرقني». مررت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بحجرة المدرسين. ألقيت تحية الصباح عليهم. أخذت طباشير وصعدت للفصل الأول.

كنت أسمع دبيب الحياة في وقع أقدامي، وأرى صفاء البنفسج يملأ روحي. كان فاضل يسير ملتصقاً بجسدي وبنبض عروقي. شعرت أنه هذا النبض وتلك الحياة. ابتسمت بخجل من طفولة أفكاري. اتسعت ابتسامتي عندما رأيت عينيه تلمعان في قرص الشمس.

* * *

استوقفني أحد المدرسين وأنا في طريقي إلى بيتي، حياي وقدم لي نفسه:

- داود جرجريوس، مدرس الإنجليزية وعراقي.

- مرحبا..

- للأسف لم نتعرف من قبل، وإن كنت قد سمعت عنك من الزملاء هنا، ولم يختلف أحدهم على الرأي في أنك من أفضل الشرقيين في خنشلة.

- أشكرك وأشكرهم.

- اليوم عيد ميلاد ابنتي، وأوصتني زوجتي أن أدعوك للاحتفال معنا..

- هذا يسعدني جداً، فقط أعطني العنوان.

- سوف أمر عليك أنا وزوجتي بالسيارة في السابعة مساء.

- سوف انتظركما..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في الموعد المحدد جاء داود وزوجته. وكنت قد انتهيت من ارتداء ملابسي.

انتبهت لملامح داود التي تختلف عن ملامح العراقيين الذين التقيت بهم. فهو شديد البياض، ووجهه ضخم وأنفه كبير معقوف وشعره أصفر. أيضاً زوجته شديدة الشبه به. وإن كنت قد شعرت أنها الطرف الأقوى في علاقتهما الزوجية.

هلل الطفلان كلارا وكارل بمجرد أن رأياني: «المصرية جاءت».

كان في الحجرة أكثر من عشرة أشخاص. رجال ونساء مصريون وعراقيون. وكان بين المدعوين عادل وإيزيس التي صاحت كالأطفال وهي تأخذني بين ذراعيها:

- أين أنت؟ وعدتني بالزيارة ثم اختفيت.

- معذرة.. انشغال في العمل.

جلست بين الحاضرين وأنا منتبهة. وفي وضع الاستعداد لاكتشاف البيت وأصحابه وضيوفهم.

قدم «فلاح» لي نفسه قبل أن يتحدث:

- سعداء بوجودك بيننا يا أستاذة، وإن كان هذا الوجود قد تأخر كثيراً. يبدو أنك قررت الاكتفاء بتحية الصباح التي تلقينها علينا في حجرة المدرسين.

رغم تودده لم أشعر بالارتياح له، ورغم أنني أراه منذ بدء قدومي للعمل بالمدرسة. فهو أيضاً مدرس، إلا أننا لم نتبادل أي حديث من أي نوع. إنه من الطراز الذي تنم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نظراته عن جرأة ونبرة صوته عن ثقة عالية تصل لحد الغرور، حتى لو كانت تحمل بعضاً من المجاملة.

بتحفظ شديد شكرته وأنا أرسم على وجهي ابتسامة محايدة لزوم الموقف.

في همة ونشاط رغم بدانة جسدها بدأت زوجة داود أو أم كارل كما تُنادي في تقديم الطعام وأكواب فارغة وزجاجات النبيذ التي ما أن رأيتها حتى انتابتني حالة ارتباك شديد زادت بوضع أم كارل كوباً فارغاً أمامي. كنت أفكر بسرعة:

هل أشرب؟ هل أرفض الشراب؟ هؤلاء التقيت بهم لأول مرة ولا أعرفهم. وضعت أكواب أمام جميع النساء. ولكن النساء معهن أزواجهن، أما أنا فبمفردي. كيف أتصرف؟ قطع تفكيري المضطرب داود:

- في صحتك يا أستاذة.

رفعت الكأس وقرعتها مع الكؤوس الممدودة. ورشفت رشفة أعقبتها رشفات حتى أوشك الكوب على الانتهاء. وملأ داود مرة أخرى. من عادة العراقيين ألا يتركوا الكؤوس حتى تفرغ. وضعت أم كارل شريط موسيقى شرقية في جهاز التسجيل وافتتحت الرقص.

اقتربت من كل الموجودات مادة يدها داعية لهن إلى مشاركتها الرقص، جميعاً قاموا حتى الرجال. وبقيت أنا معتذرة لعدم قدرتي على الرقص. كنت في حالة دهشة من هذه القدرة الإنسانية على التحايل على الحياة وانتزاع ما يمكن انتزاعه من بهجاتها.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

انهدتْ قواهم وتصببوا عرقاً وهم يتمتمون بالدعاء لأبي كارل الذي فرّج عنهم:

- والله هذا بيت الأمة يا أبو كارل.

قال أحد العراقيين، وواصل حديثه متوجهاً إليه:

- منذ أن رحلنا من العراق وجئنا إلى هنا وبيت أبو كارل مفتوح لنا جميعاً، ومفتوح لكل الشرقيين.

- ماذا تقصد بالشرقيين..

كل القادمين من المشرق العربي يقولون عنهم هنا شرقيين.

- ولكنني لا أرى هنا إلا عراقيين ومصريين. أين باقي أفراد الأمة المشرقية؟

ضحك ضحكة ودودة أضاعت وجهه وتحسس لحيته الكثيفة.

- معذرة، ما اسمك؟ عرفوني بك سريعاً.

- عماد، مدرس بعين البيضاء. خرجت من العراق مع من خرجوا، وانتظر العودة كما ينتظرها كل العراقيين.

قطع داود حديثي مع عماد بسؤاله عن مصر وأحوالها. انتبه الجميع في انتظار ردي..

- لا أعرف فأنا هنا منذ فترة طويلة.

بحدة وجرأة قاطعني فلاح:

- كيف وافقتم على الصلح مع إسرائيل؟

- ومن قال لك إننا وافقنا..

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- ألم يوقع الكلب ابن الكلب اتفاقية معهم وفتح سفارة لهم في القاهرة؟

وضع بكلامه ملحاً فوق جرح غائر في قلبي لا يريد أن يندمل ولا أريد أنا له أن يندمل. كنت أضع بنفسي ملحاً فوق جرحي كلما نظرت داخلي أتحسسه فأجده في زحمة الحياة أوشك على الذبول.

أثارت دهشتي اللغة الغريبة التي كان يتحدث بها داود مع طفليه. ولاحظ هو الدهشة التي تعمدت إظهارها على وجهي حتى يفسر دون أن أسأل.

- نحن أشوريون، وهذه لغتنا، اللغة الأشورية.

- كل هذه القرون وما زلتم تحتفظون بلغتكم الأصلية، ولم تنصهروا مع العرب.

- قاومنا الانصهار. لم نختلط جغرافياً ولا اجتماعياً بالعرب، فالآشوريون يدينون بالمسيحية.

فسر لي ذلك وجود إيزيس وعادل ورفعت وإيرين دون أن أسأل، فهم أقباط.

- قاومنا كل أشكال الاضطهاد التي تعرضنا لها، والتي استهدفت إذابتنا في العرب. كان العرب يغيرون علينا في أرضنا مستخدمين كافة أشكال التهديد والترغيب لإخراجنا عن الدين المسيحي. وواصل الأتراك محاولات العرب. كانوا يغيرون على قرانا يبيدونها ولا يبقى إلا من استطاع الهرب. تحكي لي جدتي أن الأتراك قتلوا زوجها في هجمة من هجماتهم، وأنها أخفت أبي في سلة مغطاة بالخضر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والأطعمة ورحلت مع من رحلوا أياماً لا أتذكر عددها حتى انتهى الخطر، وعادت بابنها، لتبدأ دورة حياة جديدة بمن هربوا وعادوا. لم نعرف الاستقرار والأمان فانغلقنا على أنفسنا وحافظنا على نقاء عرقنا وسنظل إلى أن تنتصر الشيوعية في العراق ويصبح لنا حق الوجود كإحدى الأقليات.

كاد أن يتفجر الدم من وجهه ومن عروقه النافرة في يده التي يحركها كأنه يخطب في حشد كبير.

لم أعلق على ما قال، فقد قطع الحديث رغبة الموجودين في الانصراف. وقام أبو كارل لتوصيلي إلى بيتي.

وقع أقدام داود تبتعد. ومع كل خطوة تبعده عن باب بيتي كان الخوف يحتل مكانه في نفسي، وما أن اختفى وقع خطواته حتى شعرت بقوة تدفعني للجري خلفه واللحاق به والعودة معه إلى بيته والنوم في سرير بجوار أطفاله. النوم في بيت أشارك فيه آخرين. هلع مركب استبد بي بمجرد أن سمعت صوت محرك السيارة.

عدت إلى الباب تأكدت أنه مغلق، وإلى الشبابيك تأكدت أنها مغلقة. ما زلت خائفة. سمعت خطوات تقترب من بابي. ويد تحاول فتحه. تكورت تحت الغطاء، تركت نور الغرفة مضاء. ألغيت كل حواسي إلا حاسة السمع التي تتحسس صوت القادم. صوت القدم التي تقترب من بابي واليد التي تحاول تحطيمه. هل أصرخ؟ هل أفتح الباب وأواجه الواقف خلف بابي؟ الساعة الآن تقترب من الثالثة بعد منتصف الليل لو صرخت من سيسمعني في هذه البلدة التي ينام أهلها بمجرد غياب الشمس؟ هل أجر السرير والمنضدة والكرسي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وأضعهم خلف الباب؟ وهل أستطيع أن أفعل كل هذا وأسراب النمل تنهش جسدي؟ والصوت لا يتوقف خلف الباب. قفزت من فوق السرير وأنا أنتفض من الرعب، بخطوات مرتعشة فتحت الباب بسرعة. وجدت قطة تخربش في عتبة الباب. أسندت رأسي على الباب بعد أن أغلقته. وكل خلية في جسدي ترتعش وجفاف الملح يملأني، أخذت ألوك الجفاف بلساني لعله يرطب تيبس شفتي وحلقي وعدت إلى السرير، دسست جسدي تحت الأغطية. تحسست الفراغ الراقد بجواري وبكيت.

لا تتوقف الرسائل القادمة من القاهرة لي. ألملم ما فيها من شوق ولهفة وحنين، وأغلق قلبي عليها. جمرة مشتعلة داخله، وكأن الدم الجاري في لحمي ملح الدمع المسكوب من عيون البشر. وكأني الغريبة الوحيدة في الكون. أتشبث برسائلي كما لو كانت آخر خيط يربطني بمصر.

غطى اللون الرمادي المُشَرّب بالصفرة السماء فجأة وزحف إلى حجرتي. خرجت للسير في الحديقة المحيطة بمنازل المدرسين. جلست على الحشيش وأسندت ظهري لحائط حجرتي. فشلت كل محاولاتي في منع نفسي من التفكير في فاضل، وفي أبعاد وجوده، الذي يشاركني كل دقائق وجودي. تطلعت إلى الأفق الذي انشق وأتى لي به يشاركني جلستي فوق ركبتي وقد لففت ذراعي حولها. لا أعرف كم من الوقت مضى.. قبل أن تضع نادية يدها على كتفي، وتنتزعني من حضن نفسي؟

- فيم تفكرين أيها الطفلة الجميلة؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- مرحبا يا نادية، كنت أفكر في نفسي.

جلست بجواري ولفت ذراعها حول كتفي.

- مضى وقت طويل وأنت تفكرين في نفسك. أعتقد أنه أطول مما ينبغي.

- ماذا تقصدين؟ لم أفهم؟

- أقصد أن في حياتك شيئاً يعذبك. توقفي عن الغوص فيه.انزعي نفسك من داخله وانظري له من الخارج حتى تستطيعي معرفة حدوده. قد يكون أقل من أن تتعذبي به.

قاطعني أحد طلابي معترضاً أثناء شرحي للدرس، لأنني قلت «نحن العرب» قائلاً: «من هؤلاء العرب يا أستاذة».

- نحن، من الخليج إلى المحيط.

- ولكننا لسنا عرباً.

- وماذا تكونون؟

- نحن بربر، السكان الأصليين للجزائر، أو الأمازيغ. لنا لغتنا وعاداتنا وتقاليدنا وتاريخنا السابق على تاريخ العرب.

- جميعنا، لنا تاريخنا السابق على تاريخ دخول العرب بلادنا..

- أنتم أصبحتم عرباً، أما نحن فما زلنا محتفظين بلغتنا الأصلية القبايلية والشاوية.

- ألم تسمعي عن مظاهرات الطلبة القبايل بالجامعة يطالبون بالحكم الذاتي والتدريس بلغتهم.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- وهل اللهجة القبايلية أو الشاوية مكتوبة؟

- نحن نبحث عن حروفها ويمكن استخدام الحروف العربية حتى نكتشفها.

- عموماً هذه قضيتكم، وليس من حقي أن أوافق أو أعترض.

لم أستطع أن أقول له: ولكن من حقي أن أتألم.

أنهيت اليوم بنصف عقل. نصف يردد درس اليوم. والنصف الآخر يبحث في وجوه الطلبة عن القبايلي والشاوي والعربي.

أكلت سريعاً وأنا واقفة في المطبخ، وخرجت لزيارة رفيقة. على باب المدرسة، وجدت عادل وإيزيس مقبلين علي، وفي انتظارهما وانتظاري رفعت في سيارته. لنذهب إلى مكان من خنشلة اقترحه رفعت اسمه حمام الصالحين. أخذتنا السيارة في طريق يرتفع عن خنشلة نسبياً ثم هبطت بنا مرة أخرى إلى أسفل الجبل. وكلما اقتربنا اقترب منا خرير المياه. الجبل يفجر حمله من الماء الفاتر ويصبه في جداول شقها ماء تصل درجة حرارته إلى الغليان، رغم أن الجبل مغطى بالثلج معظم شهور السنة.

شربنا قهوة في مقهى الحمام، ثم قمنا لنتجول. كانت الشمس تتجه إلى الغرب تسحب آخر ضوء أحمر صمد أمام الظلام، وانسحب الظلام خفيفاً شفافاً على المكان وخرير الماء لا يتوقف ورياح رقيقة تداعب أوراق الشجر، تسقط الأضعف وتصمد لدغدغة أناملها الأوراق الملتصقة بفرع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لين أخضر يملأ تجاويفه حليب أبيض. وقع خطواتنا أقلق العصافير في أعشاشها. كانت تزقزق زقزقة متقطعة معلنة عن وجودها. زغب أخضر نبت في تجويف ثدييّ شعرت به سيشقهما ويخرج، ضغطت على ثدييّ أوقف زحف الشيء الذي لا أعرفه تحت جلدهما وفي شراييهما الصغيرة. سرنا بين الأشجار المتوحدة في توحش رائع. عمرها من عمر الجدران الهرمة المبنية بأحجار ضخمة للحمام الروماني. عبرنا الجدران إلى المسبح الذي تصب فيه المياه الفائرة من الجبل مباشرة. شعرت بغليان الماء يحرقني رغم أني لم ألمسه. أحاط المسبح بأحجار ضخمة حاولت بصعوبة أن أصل إلى أحدها. الوصيفات والمحظيات والملكات الرومانيات والبربر والأتراك والفرنسيون، على الحجارة نقوش لنساء ورجال عرايا وفي أوضاع جنسية مختلفة.

فرشت نادية أوراق الكوتشينه على المنضدة. وأخذت تتأمل كل ورقة على حدة ثم تجمعها مرة أخرى وتهمس بين الأوراق ثم تخرج ورقة من بين الأوراق كيفما اتفق إلى أن وصلت إلى صورة «البنت». خبطت على المائدة وقالت:

- هذه هي «فياريسما» زوجة مسؤول العاملين السوفييت بالشرق الجزائري. هي من تكيد لي لدى زوجها لأنها تغار مني. أنظري. هل أفتح لك الكوتشينه؟

- نعم، فقط دعيني أودعها سرى.

* * *

وقفت في طابور شراء تذاكر العلاج بالمستشفى العام

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بالمدينة - تقريباً العلاج مجاني في الجزائر - فقد كنت أشعر بالإرهاق. أجرت الكشف علي طبيبة سوفيتية. كنت أشرح للممرضة ما أشعر به. وتترجم هي إلى الفرنسية للطبيبة. كتبت لي بعض الفيتامينات وحقن. طلبت من الممرضة أن ترجو الطبيبة تغيير الحقن لأنني لا أعرف من يمكن أن يعطيها لي. تغيرت ملامح الطبيبة وعلا صوتها. وترجمت لي الممرضة والكلمات تتعثر في فمها أن الطبيبة ليست مسئولة . ولم تكمل الممرضة فقد قاطعتها الطبيبة بإشارة من يدها تعني أن أخرج. شعرت بإهانة وألم شديدين. سرت في الطريق أبكي حتى وصلت بيتي. واجهت نفسي بهشاشتي... وكأنني قطعة من الزجاج الضعيف أو طفل معقم ما أن يتعرض للهواء الخارجي حتى يصاب بالمرض. إني الآن في العالم بمفردي في ظروف طبيعية أنا والحياة، خرجت من الحضانة المعقمة. خرجت من دائرة الأسر. أسر قدرتي على التصرف والفعل. الطبيبة لم تخطئ أنا التي أخطأت.

كانت أعرف أن حورية هي التي تطرق الباب، فقد أعطتني موعداً بالأمس. فاضت ابتسامة عينيها وهي تقول لي:

- هيا لتأخذي الإبرة، فقد عقمتها قبل أن آتي لك..

- ألا ننتظر حتى نشرب الشاي.

- ننتهي من الإبرة أولاً ثم نشرب الشاي، أم أنك خائفة؟

كنت أتأملها وهي ترتب أشياءها في العلبة الحديدية. تخفت ابتسامتها التي تضئ وجهها الأبيض الجميل وراء حزن وأسي دفينين. مسحت على شعرها الأصفر بيدها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لتخفي ارتباكها عندما لاحظت تأملي لها. أنهت صمتنا بدعوتها لي لزيارتها في بيتها في يوم أحدده، شكرتها ووعدتها بتحديد موعد عندما تأتي لتعطيني الحقنة التالية. تركتني رافضة تقاضي أجرها عن الحقنة.

* * *

استلقيت فوق سريري استعداداً للنوم مع صراعي المتواصل حول سؤالي الدائم الذي يطرق رأسي: ماذا أفعل، بعد مواجهتي لحياتي مع زوجي ومحاسبتي لها من خارجها، هل أطلب الطلاق؟

مرت ساعات وأنا أحملق في سقف الحجرة. أمامي علبة سجائري ومنفضة وفنجان قهوة وورقة وفي يدي قلم. امتلأت الورقة بالخطوط المستقيمة المتعامدة والمتوازية والمتشابكة، أخذت شكل مربع كبير بداخله مربعات صغيرة متداخلة ومتقاطعة. كنت سأكتب على هذه الورقة رسالة إلى زوجي أطلب فيها الطلاق.

استبد بي الخوف كما استبدت بي الشفقة. وسؤال جديد يمزقني: «ماذا بعد الانفصال عن زوجي»، إنه يحبني. ولكن ماذا فعل من أجل هذا الحب؟ ماذا قدم له؟ أيام قضيناها معاً، التحمت حتى أصبحت سنوات. استيقظ في الصباح قبله بنصف ساعة أعد له الفطور. أضعه على صينية، أدخل به إلى السرير، أوقظه. يرفع جسده إلى أعلى قليلاً، أضع صينية الطعام أمامه وأجلس بجواره في انتظار أن ينتهي من إفطاره. نذهب لأعمالنا، أعود قبله. أعد طعام

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الغداء، يعود ناقماً على الحياة، يصب نقمته على رأسي، يغرق في كنبة تحتل أحد جدران الحجرة الوحيدة في بيتنا مشعلاً التلفزيون إلى اليوم التالي، أو لحين حضور أحد الأصدقاء. تسربت أحلامنا من بين أيدينا. التقينا في حلم كبير، التقينا في جموع البشر، في خضم الحياة الخالقة للحياة. تصورنا أنفسنا صناعاً للمستقبل. وكنا صادقين. تمزقت شرنقة الحلم الواهية وخرج منها كثيرون، وبقينا نحن أسرى الفتات المتبقي من خيوط الشرنقة. وللحلم المجهض وجه قبيح عاشه حديثاً لا ينفصل عما فات، لم يفكر فيما هو آت، فقد توقف الزمن عند الانهيار.

ماذا أكتب له وماذا سيكون رد فعله؟ لم أكن أتوقع ردود أفعاله. وكنت أخافه. كان رد فعله الدائم هو ارتفاع صوته بالصراخ والتأنيب والإطاحة بما يلقاه بيده ثم يهدأ ويبدأ في مناقشة الأمر. كانت لديه قدرة على استلابى مستخدماً كل مفردات المنهج العلمي التي يعرفها. لديه قدرة فائقة على تطويع الحقائق لتصب فيما يراه، والهروب من مواجهة الممكن وتحقيقه، إلى المطلق. كنت لا أجد منطقاً يعادل منطقه أدافع به عن وجهة نظري. لم يكن مسموحاً لي أن أرى غير ما يرى. وها أنا أراه بعيداً عن سطوته. اكتشف العالم بدونه. اكتشف قدرتي على التفكير والتصرف... أعرف نفسي بحق لأنني بعيدة عنه. واكتشف أنني لم أعش سوى أكذوبة سرقت أجمل سنوات عمري.

* * *

استيقظت مبكراً انتظاراً لعادل وإيزيس ورفعت فقد اتفقنا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

على حضور قداس في مدينة باتنة. لم تكن الكنيسة مبنية على طراز كنائسنا، فهي مجرد بناء قديم من طابق واحد. طرقنا بابها الخشبي الضخم. فتح لنا رجل يرتدي بنطلون جينز وقميصاً بنصف كم، ويعلق في رقبته صليباً. قادنا عبر ممر طويل إلى حديقة صغيرة مكسوة بأغصان وأدوات وثمار العنب في تكعيبة واحدة. تحت ظلالها جلسنا على مقاعد هي جذوع الأشجار التي لم تمتد إليها يد إنسان. تركنا الرجل وعاد يحمل صينية عليها زجاجات النبيذ وأكواب فارغة. بدأت الأسر تتوافد علينا، كانوا جميعاً مصريين. حوالي خمس أسر من العاملين بباتنة. وأنا المسلمة الوحيدة بينهم. أوقف الرجل الذي فتح لنا الباب أحاديث التعارف الأولى مقترحاً أن نشرب نخب وجودنا وتعارفنا. سألت الجالسة إلى جواري:

- من هذا الرجل؟

- القسيس.

- ماذا؟

- نعم، ولكنه بروتستانتي والبروتستانت لا يتقيدون بالزي الكهنوتي.

كان وجه القسيس يفيض سعادة ليست من هذا النوع الذي يظهر على وجوه رجال الدين عادة، ولكنها سعادة إنسان يجلس بين معارفه وأصدقائه في حديقة رائعة الجمال وفي بيت قديم تفوح منه رائحة السنين. سألته: هل أنت جزائري؟

- لا، أنا إسباني ولدت بالجزائر وبعد الاستقلال رفضت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العودة لإسبانيا ولذتُ بهذه الكنيسة من أجل رعاياي.

- أعرف أن كل الجزائريين مسلمون.

- رسمياً لا يوجد مسيحي جزائري واحد، ولكن فعلياً يوجد عدد قليل جداً من المسيحيين بالجزائر، ولكنهم ذائبون في المسلمين. فقد جاء الغرب بالتبشير ودخل الجزائريون المسيحية من قنوات متعددة. فالبعض من خلال عملهم في بيوت ومزارع الفرنسيين والبعض طمعاً في مساعدة الكنيسة التي كانت تغدق على من يعتنق المسيحية. وكان الجزائريون فقراء لحد الجوع الحقيقي، وعندما بدأت حرب التحرير رفع المسلمون المتشددون شعار مقاومة الكفار أي الفرنسيين أي المسيحيين. مما دفع الكثيرين من مسيحيي الجزائر إلى العودة للإسلام إما خوفاً أو اقتناعاً. وهم يمارسون العبادة سراً ويسمون بأسماء محايدة ويحتفلون بأعياد ومناسبات المسلمين.

تمنيت أن ألتقي بمسيحي جزائري ولكن أمنيتي لم تتحقق.

بدأت الصلاة ورتل الشمامسة تراتيلهم الجميلة. تناولنا دم ولحم المسيح. لم يتناول معظم الموجودين، لأن القداس بروتستانتي وهم مصريون عمدوا وفقاً للطقوس الأرثوذكسية.

اعتبرت إيرين تناولي إهانة لدم ولحم المسيح لأنني لم أعمد، واستاءت من سلوكي، ولكن زوجها رفعت أكد لها أن الرب لنا جميعاً.

سرى الدم في عروقي وفي روحي. دم هو أم معجزة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المسيح الأولى؟ الماء. النبيذ. المسيح المصلوب من؟ ومن هي العذراء؟

* * *

تمنيت ألا تأتي حورية اليوم، فرغبتي الملحة في النوم والخلاص من إرهاقي أقوى من حضور عيد ميلاد ابنتها، وأهم من أن آخذ الحقنة. ولكنها أتت في موعدها.

استقبلتني أسرة حورية بفرح من يلتقي بصديق قديم غاب عنه لسنوات. شقيقتها الصغرى النضرة كالفاكهة وأشقاؤها الأربعة وأمها. توافد علينا المهنئون. شباب وفتيات في عمر الأشقاء الخمسة. جلسنا معاً في نفس الحجرة نحتفل بالصغيرة...

سألت حورية ونحن في طريق عودتنا إلى بيتي بدافع من فضولي الذي لم يفارقني منذ أن اخترقت الحواجز الحديدية بين مصر ومطارها الدولي.

- حورية لاحظت أن أشقاءك وأصدقاءهم شاركونا الاحتفال بعيد ميلاد طفلتك بينما أنتم لا تسمحون بهذا الاختلاط.

- تقريباً نحن العائلة الوحيدة في خنشلة التي تمارس هذا السلوك. فقد تعودنا منذ طفولتنا على الاختلاط بأصدقاء إخوتي. أمي كانت تقول: المرأة الحرة لا تخاف رجلاً، ولا يخاف عليها من رجل.

- لم يكن زوجك بين الحاضرين، أليس كذلك؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- نعم فأنا مطلقة، طلقت وعمر طفلتي شهر. أمي أيضاً مطلقة، ومع ذلك لا ينقصنا شيء، فنحن جميعاً نعمل، وكفانا ربنا حاجتنا للنعاج.

لم أقل لزوجي في رسالتي له سوى أن علاقتنا لم تعد تحتمل الاستمرار. وأنني بدافع من صدقي مع نفسي ومعه أطلب الطلاق.

* * *

تندى جبينها بالعرق وسخن جسدها. ضغطت على خاصرتها بأصابعها وأنا أضمها إلى صدري. ضغطت على شفتها السفلى بأسنانها طالبة العون من العذراء مريم، ويسوع الرب. لم يكن مع إيزيس أحد في حجرتها بالمستشفى سواي أنا وعادل.. كانت تتقلص. تشد جسدها إلى أعلى متشبثة بأحرف السرير مرة وبجسدي مرة أخرى، ثم تهدأ وتعود أنفاسها التي زفرتها صارخة إلى الانتظام، وتهمد في لحظة من السكون العميق. ثم يعاودها مرة أخرى الألم. كنت عاجزة عن عمل شيء لها. تمنيت لو أستطيع تحمل جزء من الألم معها. جاءتها الممرضة ووضعت يدها في قفاز وغمسته في محلول، أدخلته تحت الملاءة وأخرجته وقالت لنا «ما زال أمامنا وقت». صرخت إيزيس: إلى متى، أريد أن أخلص، ارحموني.

أعطتها الممرضة حقنة وخرجت.

نامت إيزيس والعرق يغطي جسدها. تركني عادل مع إيزيس وعاد إلى بيته لإحضار بعض الحاجيات. مرت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ساعات طويلة لا أعرف عددها وأنا جالسة بجوار إيزيس على السرير. يعاودها الألم ويهدأ. اقتربت فترات الألم واشتد. ولم يعد عادل. مرة أخرى جاءتها الممرضة فحصت إيزيس وقالت «هيا إلى غرفة الولادة».

سألت إيزيس: أين عادل؟

- ذهب إلى البيت وسوف يعود سريعاً..

استندت إلى حتى غرفة الولادة. قالت بصوت ضعيف متوسل للممرضة «دعيها تدخل» وتوجهت لي «أرجوك لا تتركيني». وقفت بجوارها طوال الوقت ممسكة بيدها في يدي التي كانت تودعها ألمها بالضغط عليها. امتلأت ذرات الغرفة بألم إيزيس وصراخها وندائها للسيدة العذراء. تصاعد الألم حتى بلغ ذروته عندما مدت الممرضة مقصاً لتقص طريقاً أوسع لرأس آدمي ملطخ بالدماء انزلق شيئاً فشيئاً حتى خرج صارخاً في فضاء الغرفة. وكانت «ليليا» التي مسح صراخها كل ألم إيزيس وملأ وجهها بابتسامة تحمل أسئلة كثيرة ودهشة طفل هادئ.

* * *

أتوحد مع وحدتي. مع بخار متصاعد من كوب الشاي والدخان المتصاعد من سيجارتي. أملك المحيط الساكن الذي لا يشغل حيزاً فيه أحد سواي، أنا، بجسدي النحيل وبقلبي الساكن في دعة وهدوء أسير على سطح النيل الهادئ. أمد يدي لفاضل نسير معاً فوق تجاعيد السنوات على وجه النيل. مجنونة وصاخبة أعماقي، أضغط على كوب الشاي.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أصابعي النحيلة لا تحطمه. ألقيه إلى الحائط يتهشم وتتساقط أجزاؤه على الأرض، بقع الشاي تحتل جزءاً من الفراغ. أصرخ يحتل صوتي جزءاً من الفراغ. دخان سجائري يحتل جزءاً من الفراغ. صوت هادئ يلملم صخبي. صوت فاضل يحتل كل الفراغ.

طرقات عنيفة على الباب تفزعني. وصوت خلفه «تليفون من القاهرة».

جاءني صوته مهزوماً. لأول مرة أحسه ضعيفاً. ارتسمت ملامح الهزيمة على نبراته وعلى مخارج ألفاظه، هذه التي كان يضغط عليها ويفخمها ويضخمها ويعلو بها ويهبط وفقاً للظروف والأحوال. تشبث بي هذا المستغنى بذاته عن الآخرين. كان دائماً هو الأقوى، ليس لأنه رجل وأنا امرأة. ولكن لأنه هو هو وأنا أنا. أعرف أني أتحمل مسؤولية ما وصلت إليه العلاقة، لأنني قبلت أن أخافه، قبلت أن يرى ويقرر هو، ثم أرى وأقرر وفق ما يشاء. ولكنني لم اكتشف كل هذا في حينه. أعرف أنه يحبني وأعرف الآن أنه لم يحترم كوني إنساناً له عقل وقدرة.

* * *

ماذا بها شهيدة؟ لا أعرف. وأشعر أن فرحتها الداخلية عكرت. كانت عندما بدأت العمل طفلة خلعت لتوها مريلة المدرسة، وألقت بشرائط ضفائرها.

- ماذا بك يا شهيدة؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- لا شيء. مشاكل أبي التي لا تنتهي. أصبح كالمجانين. هياجه لا حد له. وأخيراً أعطاني مهلة أسبوعاً حتى أرتدي الحجاب. لم أكن أتصور أن يتدخل أحد في أخص خصوصياتي بهذا الشكل.

جلسنا صامتين، كل منا تتجرع ألم الضغط عليها.

«أتيت لتحتلي مكانك في قائمة أحبائي الصغيرة، ثم توغلين في البعد مثلهم تماماً. أبحث عن وجه أمي وعن وجه أختي سهام وعن وجه هانا، وعن وجهك. جميعكم وجوه بعيدة تقترب من مسام روحي، تلمسها، ثم تبتعد، ممزقة شرايين الحياة في جسدي، في كل خطوة تخطونها بعيداً عني. أبحث عنك كي تلملمي أشلائي المبعثرة بدجلة والفرات. ربما تسألين من تكون «هانا»؟ رفيقة دنماركية قدمت لي الكثير ولم أستطع أن أقدم لها إلا أمنيات صادقة بالعطاء. أبحث عن الرحمة في قسوة أمي فلا أجد إلا الغفران. لو كانت عنفتني يوماً، لو تركت خناجر الألم تنطلق على وجهها وفي عينيها، لو قالت لي يوماً: أنت تشقيني، أنت نقمة الزمن علي. لو صرخت شقيقتي سهام في وجهي قائلة:

"ارحل عنا فأنا نقطة الضعف التي أرادوا أن يقتلوك بها. " بكت على صدري، تحسست جسدها الممزق. قالت: أيام وتلتئم جراحي. خفت أن تتنازل لتنقذني، خفت أن تسمع صراخي فتنهار. احتفظت بدموعي لأذرفها على صدرك. وأنت أية نقمة ستصيبك؟ ليس عندي ما أقدمه لك سوى

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منفاي الواسع وبعض القصائد الهزيلة وعمر خائب سوف يتكئ على عمرك وعلى أيامك. ليس عندي سوى حقيبة بها بعض الملابس الرثة، وبعض الكتب وجواز سفر أوشك على الانتهاء.ليس عندي إلا حب عميق أحمله لك، ولكنه ليس بديلاً عن أي شيء».

كانت رسالة فاضل ضمن رسائل أخرى من أصدقائي وأشقائي يناقشوني في طلب الطلاق ويحاولون إثنائي عنه ويحذرون من عواقبه وكأنني مقبلة على الضياع.

استدعيت لتصحيح أوراق الثانوية العامة في قسنطينة، وكان قد انقضى من شهر رمضان عدة أيام. وصلنا شهيدة وأنا، إلى المدينة الجامعية. انتظرنا حتى موعد الإفطار وبعده خرجنا، شهيدة وصديقاتها وأنا، إلى وسط المدينة التي ازدحمت شوارعها وكأن كل سكانها خرجوا من بيوتهم بعد الإفطار محطمين استكانة العام في البيوت. رجالاً ونساء وأطفالاً خرجوا يسيرون على غير هدى، جماعات يجلسون في الحدائق ويقفون أمام المحلات. رأيت هذه الجماعات البشرية أيضاً في شوارع خنشلة منذ الإعلان عن رؤية هلال شهر رمضان.

كان فاضل في انتظاري أمام مدرسة ابن باديس بعد أن أنهيت أعمال التصحيح. سألني:

- ماذا ستفعلين؟

- سوف أعود إلى مصر لأتمم إجراءات الطلاق أولاً ثم آتي أينما كنت.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- سوف أرحل إلى سوريا، فقد أوشك جواز سفري على الانتهاء، ولابد من تجديده. ألقى القبض على سعدي وهو محجوز الآن بالعاصمة وسوف يرحل لا أعرف إلى أين، فقد انتهى جواز سفره.

* * *

طريق طويل ومظلم من المدرسة إلى محطة الأتوبيس. لسعات برد الفجر تنخر عظامي. سرت عدة أمتار بعيداً عن المدرسة حتى فكرت في العودة، فالشمس لم تشرق بعد والناس نيام. نظرت خلفي وجدت الوحشة. وقفت في مكاني فالوحشة خلفي وأمامي. السواد يغلف الأبنية، والشجر الكثيف المتراص على جانبي الطريق يبدو كالأشباح. لم يكن أمامي إلا مواصلة السير في الطريق الصاعد نحو محطة الأتوبيس في أعلى هضبة في المدينة حيث البيوت ذات الحدائق المسورة تمنع رؤية ما خلفها والتي كان يقطنها الفرنسيون، وكأنهم أرادوا أن يجثموا فوق الصدور ببناء بيوتهم في المناطق المرتفعة بينما بيوت الجزائريين ترقد في المناطق المنخفضة.

وصلت المحطة أجرجر أكياس الرمل والملح المعلقة في أقدامي وأسمع رعشات قلوب كل الخائفين في نبضات قلبي.

جلست على مقعد ألتقط أنفاسي في انتظار الأتوبيس الذي سينقلني إلى العاصمة. امتدت يد صغيرة تربت على ركبتي. يد زرقاء من شدة البرد تحمل خبزاً وبيضاً مسلوقاً. انطلق صوت ضعيف صغير كزقزقة عصفور يرتعش من وقع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المطر على ريشة: تفطري، خذي خبزه وبيضه الله يعيشك. صوت لأربعٍ أو خمس سنوات، استنطقه جوع البرد، لا تشبعه كسرة الخبز الجافة الملقاة في سلة في ركن في حجرة مظلمة. خلع قماطه وارتدى ثيابه الرثة وخرج يحمل بضاعة أثقل من سنين عمره. ما إن مددت يدي إلى حقيبتي حتى انفجرت الأرض بأطفال آخرين يحملون بضاعتهم وكلهم لا ينطقون إلا جملة واحدة «اشترِ مني الله يعيشك». الأيدي الصغيرة التي لم تلمس إلا الخواء أزاحت بعضها، في صراع من أجل ما سأقدمه أنا.

وصل الأتوبيس وأصوات تنطلق من كل بقعة من أرض الجزائر. «من هنا انطلقت الرصاصة الأولى لتحرير الجزائر».

وصلت العاصمة بعد منتصف الليل. كان فاضل في انتظاري. أمسكت بيده وصعدنا السلالم إلى منتصف المدينة، التصقت به لأحتمي من البرد. سرنا على شاطئ البحر، سبحت مع قمره ونجومه. تشدني أمواجه وروحي إلى الشرق، ويشدني فاضل لأبقى، إلى جواره. ارتشفت أصابعه قطرات المطر المتساقطة على وجهي. لم تحمنا مظلتي الصغيرة من المطر. ولم نجد لنا مكاناً في المدينة. سرنا نحتمي بأسقف البيوت. ضوء خافت خلف باب ولافتة كتب عليها بالحروف اللاتينية «بار».

ارتشفت قطرة النبيذ، استحلبتها وكأني أمتص قطعة من السكر. يسري النبيذ عَطِراً في المكان، يتسرب من الكؤوس إلى الشفاه إلى خلايا الكون فيصبح جمالاً خالصاً. معجزة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الرب تسري في العروق دفئاً. تهدأ الارتعاشات الخفيفة للأجساد السابحة بين جدران البار الأربعة، بين جدران الكون الأربعة. معجزة الرب لا يفصلها عن البار إلا بابه الموصد والذي يفتح بمجرد هبة ريح أو لمسه يد.

غناء خفيف مع دقات بالأصابع على المنضدة المجاورة لنا. صوت كموج البحر مضى يغني «الحمام اللي والفته مشى ما عاد ييجي على أغصاني».

يد تفرغ ما في الجيوب، تعد الدراهم وتضعها على المنضدة ويطلب صاحبها كأس نبيذ آخر. تمتد اليد إلى الفم تجففه وتسقط إلى جواره، وتسقط ابتسامة من بين الشفاه وهي تتطلع إلى كومة الدراهم.

أحاديث هادئة. أصوات لا تسمع. شفاه تتحرك على مسامع الجالس أمامها. أحمال. والكل يتحدث والكل يسمع. تتراقص الابتسامات فوق الشفاه. تنفرج الوجنات الغائرة، الاطمئنان يملأ أرجاء المكان. تتطلع العيون كلما فُتح الباب للقادم مرحبة. عائلة يعود أفرادها كل في موعده. عائلة لم تتسع لأفرادها سوى مناضد البار. أبدد توحدهم الجليل بضحكة عالية. التفتت عيونهم ناحيتي تحفل بضحكتي وبحقي في الضحك. نظراتهم أزالت ارتباكي. عادوا إلى الكؤوس وإلى أطباقهم وإلى أحاديثهم الطويلة الهادئة الحميمة. ترتفع أمواج البحر، تتكسر على زجاج البار. ويخلو الشارع من المارة. ويخلو الكون لي أنا وفاضل.

لم يترك يدي، كأنه يخشى أن يفقد لمستها. في قبضته

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يسكب حلمه بي. وفي قبضتي على يده كنت أخلق له وطنا، به بحر وشمس مشرقة، وأنا وهو.

انتزعت يدي من يده. جريت أعبر الشارع. سيارات مسرعة تفاديتها. جريت حتى وصلت إليهم. ألقيت بكل لحظات الألم في أحضانهم، في رائحة هي توأم رائحتي. في سنوات هي جزء من سنوات عمري وأعمارهم. كانوا صلاح عيسى ورضوى عاشور وفريدة النقاش، في طريقهم إلى المطار عائدين إلى مصر. ضمتني فريدة إلى صدرها مرة أخرى وسألتني: هل تحتاجين أي شيء من مصر؟

سمعت صوت صلاح وأنا ما زلت في حضنها: لا تريد، هي عائدة إلى مصر.

القاهرة 24\4\1989

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بهيجة حسين

بهيجة حسين مثقفة مصرية تجمع بين الفلسفة والأدب والنضال السياسي والنسوي. تنتمي إلى جيل الروائيات المصريات اللاتي برزن في تسعينيات القرن العشرين، وتتميز مسيرتها بالالتزام بقضايا العدالة الاجتماعية والحرية، وانشغالها الدائم بواقع المرأة المصرية.
ولدت **بهيجة حسين** عام 1954، مركز كفر صقر، محافظة الشرقية، مصر.- حاصلة على **ليسانس الفلسفة** من كلية الآداب **جامعة عين شمس**.

- عملت في **جريدة الأهالي** (لسان حال حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي)، وهي كاتبة عمود ثابت بعنوان **"عين حورس"** في الجريدة نفسها.
- تولت مسؤولية صفحة **"المصري الفصيح"** في الجريدة.
- شغلت منصب **نائب رئيس تحرير** جريدة الأهالي.
- **رئيسة تحرير** مجلة **المرأة الجديدة**.
- عضو هيئة تحرير **مجلة آفاق اشتراكية**.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

النشاط السياسي والحقوقي

- إحدى قيادات **الحركة الطلابية في الجامعات المصرية** في فترة السبعينيات.
- عضو **المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري**.
- شاركت بفاعلية في الفعاليات الوطنية مثل **"الحوار الوطني"** المصري (ضمن لجنة حرية الرأي وتداول المعلومات).
- ناشطة بارزة في الحركة المدنية والحقوقية، ولها مشاركات في أنشطة **اللجان الحقوقية**.

الإنتاج الأدبي

الروايات:

1. **رائحة اللحظات** (1992) - دار الثقافة الجديدة.
2. **أجنحة المكان** (1995) - دار الثقافة الجديدة.
3. **مرايا الروح** (1997) - دار الثقافة الجديدة.
4. **البيت** (1999) - دار الثقافة الجديدة.
5. **حكايات عادية لملء الوقت** (2008) رواية.

أعمال أخرى

- **أوراق يوسف صديق** (1998) - كتاب توثيقي تاريخي عن أحد **يوسف صديق** ضباط ثورة يوليو.

الأفكار والمواقف البارزة

- تركز كتابات **بهيجة حسين** على **قضايا الواقع المعاش، القهر الاجتماعي، والمرأة،**
- تؤمن بأن الكتابة يجب أن تكون **متحررة من الغموض ومرتبطة بالحياة اليومية،**
- تنادي بسرد عربي **أكثر انفتاحاً على الواقع،**
- تُعرف بمواقفها النقدية تجاه السياسات الرسمية والاجتماعية،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- تربط بين **الحرية الإبداعية وتحرر الفرد** من **القيود الاجتماعية،**
- ترى أن **دور المثقف والأديب هو الانحياز لقضايا الناس الكبرى ورفع الوعي المجتمعي**.

التكريم

- حاصلة على **جائزة نقابة الصحفيين المصرية في مجال "صحافة المرأة"** لعام 2025.

منشورات «ألف باء AlfYaa»